مختصر كتاب

ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني
المشهور بابن الوزير (٧٧٥ هـ - ٨٤٠ هـ)



تقديم واختصار

دكتور
مصطفى حلمي
أستاذ العقيدة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
رئيس قسم العقيدة الإسلامية بكلية دار العلوم - سابقا
الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية





مختصر كتاب

ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان





بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب	ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان
اسم المؤلف	د. مصطفى حلمي
رقم الطبعة	الأولى
سنة الطبع	١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م
عدد الصفحات	١٦٨ صفحة
المقاس	١٧×٢٤
رقم الإيداع	٢٠٢٢/٤٥٧٩م
الترقيم الدولي	I.S.B.N: 978-977-6900-41-7



شارع ٤٩٤- كاستنيا - ارض شاكوس متفرع من شارع مصطفى كامل

شارع عمر متفرع من شارع أبي سليمان أمام مسجد الخلفاء الراشدين

شارع إبراهيم الشريف - كفر عبده - بجوار مسجد الفتح الإسلامي

شارع ابو رديس - متفرع من جمال عبد الناصر - سيدي بشر - أمام قاعة جمعية الدعاة

٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧ - ٠١١١٨١٧١٩٣١

راسلونا على صفحتنا على فيسبوك «دار الخلفاء الراشدين»




مختصر كتاب

ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني

المشهور بابن الوزير

(٧٧٥هـ - ٨٤٠هـ)

تقديم واختصار

د/ مصطفى حلمي

توزيع





شارع ٤٩٤- كاستتيا - ارض شاكوس متفرع من شارع مصطفى كامل

شارع عمر متفرع من شارع ابي سليمان أمام مسجد الخلفاء الراشدين

شارع إبراهيم الشريف - كفر عبده - بجوار مسجد الفتح الإسلامي

شارع أبو رديس - متفرع من جمال عبد الناصر - سيدي بشر - أمام قاعة جمعية الدعاة

٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦ - ٠١٠٩١٥٥٥١٥٧ - ٠١١١٨١٧١٩٣١





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما بعد: فقد عثرتُ -بتوفيق الله عَزَّ وَجَلَّ وفضله- عَلى ضالتي بكتاب ابن الوزير اليماني (٧٧٥هـ-٨٤٠هـ) **«ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان»** المتضمن للحجج والبراهين الكفيلة ببيان تهافت تأويلات الحداثيين والتنويريين التغريبيين، تلك التأويلات المخالفة للشرع والعقل، والصادمة بقسوة لأحاسيس وقلوب المؤمنين! وقد استعنتُ بالله تعالى واختصرتُه؛ إذْ حذفتُ ما لا يتصل بجوهر موضوعه، كالإسهاب في عرض عقائد الفرق الكلامية والمذاهب الفلسفية، ونصوص بعض المؤلفات، وأقوال العلماء[1].

ويتَّضح من مراجعة عناوين بعض مؤلفاته، يتضح أنه نذر نفسه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى للرد على المبتدعة في زمانه ممن حثوا على الرجوع إلى معرفة قوانين اليونان... وعادَوا علوم القرآن وقدحوا في سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقام بصدّهم دفاعًا عن الكتاب والسنة، ودعوتهم لاتباع منهج السلف، وكأنه بهذا المسلك يخاطب أيضًا بعض مثقفينا العرب المعاصرين من دعاة التغريب والتنوير والحداثة!

---

(١) عنوان الكتاب بالكامل: «ترجيح أساليب القرآن لأهل الإيمان على أساليب اليونان في أصول الأديان، وبيان ذلك إجماع الأعيان بأوضح التبيان» (ص٣) بالأصل، والكتاب طبع: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

قال في مقدمة كتابه «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: «هذا، وإني لما تمسكت بعروة السنن الوثيقة، وسلكت سنن الطريقة العتيقة، وتناولتني الألسنة البذيئة من أعداء السنة النبوية، ونسبوني إلى دعوى في العلم كبيرةٍ، وأمور غير ذلك كثيرة؛ حرصًا على ألّا يُتّبع ما دعوتُ إليه من العمل بسنة سيد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين والسلف الصالح، فصبرت على الأذى، وعلمت أن الناس ما زالوا هكذا»[١].

ومن دراستنا لكتابه رأيناه ثبت على موقفه صامدًا؛ لاعتقاده بأنه ليس من سبيل إلى استعادة مجد المسلمين ورفعة شأنهم، إلا بأن يسيروا على النهج الذي نهجَه أسلافهم.

ويدور محور منهجه في الكتاب على الدعوة للاكتفاء في البيان مما في القرآن الكريم، فإنه المعجز، والحجة البالغة[٢]، وينبغي الاستغناء بمنطق القرآن عن منطق اليونان،

---

(١) أبو عبد الله السيد محمد بن إبراهيم الوزير (٧٧٥ - ٨٤٠هـ) كتاب: «الروض الباسم في الذَّبِّ عن سنّة أبي القاسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (١/ ٩) - المطبعة السلفية ومكتبتها بالروضة - القاهرة - ١٣٨٥هـ.

(٢) وقد قام ابن الوزير اليماني ببيان إعجاز القرآن الكريم، لقد صاغ في عبارة فصيحة بصورة تركيبية رائعة ما تفرَّق في مؤلفات كثيرة عن أوجه إعجاز القرآن الكريم، فقال:

«عليكم بالقرآن فإنه الطبيب الآسي، والكريم المواسي، فإنه المعجز الذي لا تتناوله طاقات العباد، والحجة البالغة على أهل العناد، والجديد الذي لا يَخلق على طول التَّرداد، ولا يَبلى على مرور الآباد... قد فارق المعجزات باستحالة السحر في حقه، وسطوع نور الحق من مشكاة بلاغته وصدقه، وذلك لأن إعجازه في أمور كثيرة ووجوه منيرة، منها: حسن تركيبه، وإحكام ترصيفه، ومطابقة أفانينه لِلَطيف حالتَي القبض والبسط، وموافقة أساليبه لرقيق شأنَي القطع والربط، فوعيده يبكي العيون، ويستجلب الشُّؤون (جمع (شَأْن)، وهو مجرى الدمع إلى العين)، وتقشعر له الجلود، ويقطع نياط القلوب، وتجلى عنها غَياهب الكُروب، وتَزيد في الإيمان، وتهدي إلى الإحسان، وهذا ما لا يستطيعه السحرة والمشعوذون، ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾... فسبحان مَن أخرس أمراء البيان عن معارضة هذا القرآن، وجعله عصمة لأهل الإيمان! ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]». [ابن الوزير اليماني: «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (ص٢٨٨، ٢٨٩) مصدر سابق].

وحجته أن المسلمين كانوا أمة واحدة في عهد رسول الله ﷺ، وأيام الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ليس بينهم خلاف في أمر العقيدة، وعُلم من النبي ﷺ ومن الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين أن الذي كان عليه المسلمون في أعصارهم هو سبيل الهدى، ومنهج الحق، وطريق السلامة، إلى أن مارس البعض تآليف اليونان في علم البرهان؛ (فضلَّت اثنتان وسبعون فرقة من ثلاث وسبعين)، ولم يبق من الأمة على الحق إلا ببركة ممارسة طريقة الأوّلين[١].

وكأن ابن الوزير -بتصويره لما تعرض له شخصيًّا- يعيش في عصرنا؛ إذ لا يخفى على من يتابع الدراسات والمؤلفات الغربية أن منهج أهل السنة والجماعة يتعرض لحملات كراهية واسعة النطاق، عالمية ومحلية؛ بغرض التشويه والإساءة، لعل أخفها وطأة: إلصاق صفات: الأصولية، والرجعية، ومعاداة الحداثة.

إن تلك الحملات ليست عشوائية، ولكن يقف وراءها إدارات، وهيئات، ومراكز بحوث ودراسات استشراقية، تهدف -كما ذكر المستشرق الفرنسي (هنري لاوست)- بصفة خاصة (الاتجاه السني الصحيح)، ويقول: «أما نمو الأفكار العلمانية ونشاط الدفاع الديني المسيحي، فلم يكن لهما من هدف سوى إضعاف قوة المقاومة الإسلامية، وتمهيد طريق الذل والهوان أمام الإسلام»[٢].

---

(١) ابن الوزير اليماني: «الذبّ عن سنة أبي القاسم ﷺ» (١/ ١٦٠)، ويعرض موازنة، فيقول: «ضلّ سقراط... واهتدى من الأعراب كثير، وما مارس أحد منهم تلك العلوم، ولا تأوّل... فمَن أهدى إلى العقائد الإسلامية: أمّ الدرداء، وأم سُليم، وخديجة بنت خُويلد، أمْ أرسطاليس وأفلاطون وابن سينا؟».

(٢) هنري لاوست، «شرائع الإسلام في منهج ابن تيمية»، (ص١٠)، الكتاب الثالث، ترجمة وتعليق وإعداد: محمد عبد العظيم علي، ط دار الدعوة بالإسكندرية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

والله تعالى المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ٢٠ صفر ١٤٤٣هـ

٢٧ سبتمبر ٢٠٢١م

مدخل الدراسة

أولًا: مخالفة مناهج المتكلمين لمنهج القرآن الكريم[1]:

قارن الأستاذ أحمد أمين بين مناهج المتكلمين من جانب وبين منهج القرآن الكريم والسنة وأقوال الصحابة من جانب آخر، مقررًا أنه يخالف هذا وذاك، شارحًا ذلك بقوله:

فأما مخالفتهم لمنهج القرآن، فذلك أن القرآن اعتمد على الدعوة على أساس فطري، فيكاد يكون كل إنسان مفطورًا على الاعتقاد بوجود إله خلق العالم ودبَّره، ويكاد الناس بفطرتهم يجمعون على ذلك مهما اختلفت أسماء الله عندهم واختلفت صفاته، يستوي في ذلك الممعن في البداوة، والمغرق في الحضارة، وهذا ما يعجب له الباحث الاجتماعي؛ إذ يرى إجماع القبائل حتى التي لم تتصل بغيرها أي اتصال، التي لا تعرف من العالم إلا رقعتها من الأرض وغطاءها من السماء علي إله خالق، إن اختلفوا فيه فخلاف في الأسماء أو الاختصاص، فالقرآن اعتمد على هذه الفطرة، وخاطب الناس بما يحيي هذه العاطفة وينميها ويقويها، ويصلح ما اعتورها من فساد بالشرك وما إليه، وأدار الدعوة على هذا

(١) ومما يتصل بدراسة (علم الكلام) يعارض د/ محمد يوسف موسى اصطناع الأساليب نفسها مع أصحاب الفرق والمذاهب التي ظهرت في تاريخنا واندثر أغلبها، ويقترح اتباع طريقة القرآن الكريم والرسول ﷺ في بيان العقائد الإسلامية والتدليل عليها بما يقنع العقل ويرضي الوجدان، مع الإفادة من العلم الحديث الذي كشف أسرار الكون وبديع نظامه (٦٩-٧٠ من كتابه «الإسلام وحاجة الإنسانية إليه»)، مكتبة الفلاح بالكويت ط٣: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م... مع العلم بأنه قد صدر أكثر من كتاب يتبع هذا المنهج؛ نذكر منها على سبيل المثال: (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان، والإسلام في عصر العلم للدكتور محمد أحمد الغمراوي، وموريس بوكاي (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم)، فضلًا عن الكثير من العلماء المعاصرين وفي مقدّمتهم الدكتور/ زغلول النجار، ويجمعهم إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

الأساس، فالله تعالى خلق الإنسان وعني به وأحاطه ببيئته، ينتفع بها في تسيير شؤونه من أرض وسماء، وليل ونهار، وماء وهواء، وشمس وقمر، وحيوان ونبات، وهو الذي خلق الإنسان، وخلق هذه الأشياء كلها، مما ندرك وما لا ندرك، وما نعلم وما لا نعلم، وهو واهب الوجود لها كلها، وواهب الحياة لما حي منها، وواضع نظامها الذي لا تحيد عنه، وغيره لا يستطيع أن يخلق ولو ذبابًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣-٧٤] ثم غذى هذه العاطفة الفطرية بطلب النظر في كل ما حولنا؛ فذلك يسلّم إلى قوة في دين، وإيمان في يقين: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٢٤-٣١]، ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٥-٧]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]، ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١]، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

وسلك في الدعوة إلى التوحيد هذا المسلك، فاستدل على ذلك بالمألوف من تنازع ذي السلطة، وما يؤدي إليه النزاع من فساد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ

وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، كما استدل على ذلك بوحدة النظام ووحدة الحق، وخضوع المخلوقات جميعًا لنظام واحد: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]، وهكذا سار أسلوب القرآن على هذا المنهج في إثبات قدرته وعلمه، وهذا الأسلوب -كما ذكرنا- يساير الفطرة ويغذّيها، ويشعر كل إنسان في أعماق نفسه بالاستجابة له والإصغاء إليه، حتى الملحد بعقله، وهو منهج يوافق العامة، وهم السواد الأعظم في كل أمة وكل جيل، كما يناسب الخاصة، وهم الأقلون دائمًا.

فنظرة العامي إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٥،٦]، تثير إعجابًا ساذجًا بعجيب القدرة، كما أن نظرة (البيولوجي) عالم الحياة إلى منشأ الإنسان وخلقه تثير عجبه وإعجابه دائمًا وإيمانه العميق، ونظرة العامي إلى السماء وتلألؤ نجومها، وسطوع شموسها وأقمارها، تبعث عنده الإيمان بمدبّر هذا الكون وعظمته، والفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها وخلقها وأبعادها أقدر على معرفة العظمة، وأشد إعجابًا بخالقها ومدبرها، وهكذا الشأن في العامي والفسيولوجي، والعامي والسيكولوجي، والعامي والفلسفي، كلهم صالح لأن يتأثر بهذا المنهج على اختلاف في استعدادهم ومداركهم، وحياة عواطفهم وحياة عقولهم[(١)].

بعد هذا التحليل العميق الذي قدمه الأستاذ أحمد أمين يستطرد مقارنًا بين طريقة القرآن الكريم والحديث وطريقة المتكلمين وشيوخهم، فيذكر أن «طريقة المتكلمين وشيوخهم تغاير هذين الأصلين، فهم آمنوا بالله وما جاء به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم

(١) أحمد أمين (ضحى الإسلام) (٣/ ١٧) ط٣ مكتبة الأسرة بمصر ١٩٩٩م.

أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية، فنقلوا الوضع من فطرة وعاطفة ومخاطب لهما بالنظر في آيات الله إلى دائرة العقل والنظر، ومن فن جميل إلى علم ومنطق، ومن قلب إلى رأس، فبدلًا من أسلوب القرآن في نحو قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]، وضعوا طريقتهم في حدوث العالم، واضطر بعضهم ذلك إلى القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ، وإقامة الدليل على عدم حدوثها بنفسها إلى أن يصلوا إلى إثبات الله... وهكذا سلكوا هذا السبيل في إثبات وحدانيته وسائر صفاته تعالى، وكانت كل خطوة من هذه الخطوات تثير أسئلة وجدلًا، وتفتح موضوعات جديدة، فساروا فيها إلى نهايتها»[1].

النظر في آيات الله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤] [النمل:٦٠، وما بعدها].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٢، ٣٣].

---

(١) نفسه (ص١٩).

وينظر آيات (٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥) من سورة الروم.

وكلها تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ وهي على التوالي تذكر الخلق من تراب، والسكن والمودة والرحمة بين الزوجين، وخلق السموات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان، والمنام بالليل والنهار، والبرق وإنزال الماء من السماء إلى الأرض لإحيائها بعد موتها، وقيام السماء والأرض بأمره عَزَّوَجَلَّ.

التأويـــل:

ومن خصائص المنهج الكلامي أيضًا: التأويل؛ ذلك لأن المتكلمين لم يقنعوا -كما قنع غيرهم- بالإيمان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل، بل جرؤوا على ما يجرؤ عليه غيرهم، فأداهم النظر في كل مسألة إلى رأي، فإذا أداهم البحث إلى أن الإنسان مختار أولوا الآيات التي توهموا أنها تفيد الجبر، وأولوا الاستواء على العرش، وهكذا فعلوا في مسائل أخرى، فالتأويل عنصر من أهم عناصرهم، وأكبر مميز لهم عن السلف «وهذان الأمران: أعني الاعتماد في البراهين على العقليات[١] والتأويل هما اللذان يعللان ما استفاض في عصور المتكلمين من خلاف ومن أقوال لا عداد لها، ومن براهين لا حصر

---

(١) ضحى الإسلام (ص١٥).

أما معنى التأويل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] فيرى ابن تيمية أنه يُراد به: حقيقة الشيء؛ كالكيفية التي لا يعلمها إلا الله، كما قال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول».

ويراد به التفسير، هو كقوله: «الاستواء معلوم؛ فإن تفسيره ومعناه معلوم».

ويراد به تحريف الكلم عن مواضعه، كتأويلات الجهمية، مثل تأويل من تأول الاستواء بمعنى استولى، وهذا الذي اتفق السلف والأئمة على بطلانه وذم أصحابه.

«درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٣٢٨) تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

لها، مما لم يكن معروفًا في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا الصدر الأول»(١). كما خالفوا السلف أيضًا لجعلهم النظر هو أول واجبات الإيمان، بينما يستدل ابن جمرة الأندلسي على مواقف السلف بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق:١-٣]، لمن ذهب من العلماء إلى أن أول الواجبات الإيمان دون النظر والاستدلال شرط كمال لا شرط صحة؛ لأن قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ تمت به الفائدة وحصل به الإيمان المجزي، وقوله بعد ذلك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ هو طلب النظر والاستدلال، وهو زيادة كمال الإيمان؛ لأن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أكمل الناس إيمانًا، ولم يفرض الله عَزَّوَجَلَّ على الناس على أيديهم إلا الإيمان المجزي، وبقي الكمال يهبه لمن يشاء من أتباعهم»(٢).

لهذا لا نعجب -بعد هذا التحليل الدقيق لعناصر منهج المتكلمين- إذا عارضه السلف وعلماء السنة واستبدلوا به منهجًا آخر مصدره الشرع، مع إعمال العقل في تفسيره وفهمه وشرحه. وقد استمسك علماء السنة والحديث بمنهجهم حتى عصرنا الحاضر. فقد رأينا الإمام عبد الحميد بن باديس يذكِّرنا بطريقة القرآن، ناقدًا للمتكلمين والفلاسفة؛ إذ يقول: (بسط القرآن عقائد الإيمان، بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا: تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلًا عن العامة.. وبيَّن القرآن مكارم الأخلاق وما يحصل به الفلاح بتزكية النفس، فهجرناها ووضعنا اصطلاحات من

---

(١) نفسه.

(٢) (١/ ١٣) بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها - شرح مختصر صحيح البخاري المسمى (جمع النهاية في بدء الخير والنهاية) لأبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي المتوفى ٦٩٩هـ ط. دار الجميل - بيروت، دون تاريخ.

النسك الأعجمي والتخيل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام! ثم بيَّن سبيل النجاة قائلًا: «لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوّع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن»[1].

ميزة منهج علماء الحديث والسنة هو اتباع منهج الصحابة في معرفة العقائد تأسيًا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

يرى علماء الحديث والسنة أن أفضل منهج لمعرفة العقائد الإسلامية هو استقراء حياة المسلمين الأوائل من الصحابة والتابعين؛ لأنهم يعبرون عن النماذج في الفهم والسلوك، ولا يقصدون الرجوع تاريخيًّا إلى عصورهم للاقتداء بهم في طرق المعيشة التي كانوا عليها، بل يقصدون استحضار العقائد والقيم والمبادئ التي خلقت أشخاصهم خلقًا جديدًا، (قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لرستم قائد الفرس عندما سأله: ما جاء بك؟ فأجاب: إن الله عَزَّ وَجَلَّ منَّ علينا بدينه، وأرانا آياته حتى عرفناه وكنَّا له منكرين)[2].

وعرفوا رسالتهم ففتحوا العالم حينذاك، وانتشروا في الأرض شرقًا وغربًا رافعين لواء التوحيد، فدانت لهم شعوب وبلدان كانت تابعة للروم والفرس -أي الدولتين الكبريين في ذلك العصر- ولم يسعوا للغزو والاستعباد، ولكن لإخراج الناس من عبودية غير الله عَزَّ وَجَلَّ إلى عبادته وحده، وتحقيق العدل الذي أقيمت به السموات والأرض، ولا عجب فقد ربَّاهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان كل صحابي كأنه أمة.

يُروى أنه لما أبطأ على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص

---

(١) تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس (١/ ٤١٠)، وينظر: كتاب الدكتور محمد قاسم بعنوان: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لثورة الجزائر، ط. دار المعارف بمصر.

(٢) حياة الصحابة (٣/ ٦٩٨)، محمد يوسف الكاندهلوي (١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م) تقديم: الشيخ أبي الحسن الندوي، دار المعارف.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، تقاتلونهم منذ سنين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نيَّاتهم، وقد كنت وجَّهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما أعرف، إلا أن يكون غَيَّرهم ما غَيَّر غيرهم»(١).

والدارس لشخصيات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يلاحظ صفة التكامل والوحدة في السمات الشخصية -أعني العقيدية والاجتماعية والأخلاقية-؛ إذ جمع بينهم وحدة المصدر التعليمي، ووحدة الأسوة في شخصية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يلفت أنظار أعدائهم انتصاراتهم المذهلة بالقياس إلى قلة عددهم وعُددهم!

أسباب ذم الفلسفة اليونانية:

اتسم موقف علماء الإسلام من أهل السنة والجماعة منذ وقت مبكر -أي عن ترجمة الفلسفة اليونانية في عصر المأمون- بالرفض الشديد، بل اتخذوا موقفًا عدائيًّا صارمًا من منطق أرسطو -منهج تلك الفلسفة- وأعلنوا أنه (مَن تمنطق تزندق)، وحاربوها أشد الحرب وتكفير من قلّدها، وقد أفتى الإمام ابن الصلاح بتحريم المنطق حيث قال: «وليس الاشتغال بتعلمه وتعليمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين».

ويفسر الإمام السيوطي موقف ابن الصلاح بقيامه باستنباط التحريم؛ حيث حاكى الإمام الشافعي بتحريم النظر في علم الكلام كونه أسلوبًا مخالفًا لأسلوب الكتاب والسنة، أو كونه سببًا لترك الكتاب والسنة، وذلك جارٍ عن المنطق أيضًا(٢).

---

(١) نفسه (ص٦٩١).
(٢) الإمام جلال الدين السيوطي (صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام) (١/ ٦٤، ٦٥)، =

كذلك أورد نصين: أحدهما لأبي حنيفة في ذم العلوم الفلسفية، والثاني للشافعي؛ إذ عندما سُئل أبو حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: «مقالات الفلاسفة! عليك بالأثر وطريق السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة»[(١)].

وقال الشافعي: «إذا سمعت الرجل يقول الاسم غير المسمى، والشيء غير المشيء، فاشهد عليه بالزندقة».

وفي مرحلة التنظير والتأصيل المنهجي، قام الإمام الغزالي بتأليف كتابه (تهافت الفلاسفة)[(٢)]، وألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابيه: (نقض المنطق) و(الرد على المنطقيين)، كما أرسى قاعدة منهجية ذهبية عرَّفها بقوله: «إن من تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الإلهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفس وصلاحها وسعادتها ونجاتها، لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن»[(٣)].

قال الغزالي: «تكفيرهم لابد منه في ثلاث مسائل:

إحداها: مسألة قِدم العالم وقولهم: إن الجواهر كلها قديمة.

والثانية: قولهم: إن الله تعالى لا يحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.

= تحقيق: د/ علي سامي النشار، ط. مجمع البحوث الإسلامية - ذو القعدة ١٣٨٩هـ - يناير ١٩٧٠م.

(١) نفسه (ص٦٦).

(٢) هذا الكتاب الذي أغضب ابن رشد الحفيد فألَّف كتابه (تهافت التهافت) وكان مفتونًا بشدة بأرسطو مما أثار دهشة الدكتور مراد هوفمان الذي كان يصفه بـ(الثعبان)! «يوميات ألماني مسلم» د/ عباس العماري - مركز الأهرام للترجمة، ١٩٩٣م.

(٣) ابن تيمية، «جواب أهل العلم والإيمان» (ص٤٢).

والثالثة: إنكارهم بعث الأجساد وحشرها»[١].

ويعلل الدكتور عبد الرحمن بدوي عداء علماء السنة للفلسفة اليونانية بقوله: «وإذا رأينا الاتجاه العام لروح الحضارة الإسلامية ينفر نفورًا شديدًا من التراث اليوناني فيحمل عليه حملة عنيفة شعواء هي رد فعل قوي لهذه الروح ضد روح حضارة أخرى شعرت بما بينها وبينها من تباين يكاد يصل إلى حد التناقض»[٢].

وعلى هذا التحليل الدقيق الصائب، تزداد معرفتنا لأسباب معارضة علماء السنة والجماعة بوجه خاص للفلسفة اليونانية ومنطق أرسطوطاليس مبكرًا منذ عصر الترجمة، بل عادوه أشد العداء.

كذلك أكد الإمام الشاطبي أن الشريعة موضوعة لإخراج المرء من داعية هواه، حتي يكون عبدًا لله، فقال: «فاعلموا أن الله تعالى وضع الشريعة حجة على الخلق كبيرهم وصغيرهم، مطيعهم وعاصيهم، برهم وفاجرهم، وأنها بذاتها حجة على الخلق وهي الحاكمة على الإطلاق»[٣].

ولعله بذلك أراد مخالفة ابن رشد الحفيد (٥٩٥هـ) الذي جعل (الحكمة (أي الفلسفة)، صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة[٤].

(١) كتاب «تهافت الفلاسفة» (ص٣٠٧، ٣٠٨) تحقيق وتقديم: د/ سليمان دنيا، ط٨، دار المعارف سنة ٢٠٠٠م.

(٢) د/ عبد الرحمن بدوي (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) المقدمة، ط. دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٥م.

(٣) الشاطبي «الاعتصام» (٢/ ٣٣٨)، تحقيق: الإمام رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

(٤) ابن رشد «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال» (ص٢٨)، وكان أستاذنا الدكتور النشار يصفه -مع الكندي والفارابي وابن سينا ومن صار على طريقهم- بأنهم (امتداد للروح الهيلينة في العالم الإسلامي)!

وكان الإمام الشاطبي مصيبًا في وضع الشريعة في مكانها اللائق وأنها -هي وحدها- الحاكمة على الإطلاق، ومن ثَمَّ لا يصح مساواتها -حسب اصطلاح ابن رشد بالحكمة- بكتابه «فصل المقال، فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال».

ونحن إذا تقيدنا باتباع منهج القرآن والسنة فإننا ندعو أيضًا إلى إحياء المنهج السلفي، ونفخر بتحررنا أيضًا من المذاهب الفلسفية التي فرض علينا الاستعمار الثقافي دراستها منذ تاريخ اليونان حتى العصر الحديث، بل نتخذ موقف النقد والتمحيص بالأدلة طبقًا لأصول البحث العلمي الصحيح، ونثبت كذب الادعاء بأن أسلافنا أخذوا بفلسفة اليونان[١].

ولئن كان بعض المتفلسفة حاول مزج المنطق الأرسطي بكل علم إسلامي، إلا أن علماء السنة سرعان ما تناولوا هذا المنطق بالدراسة والتمحيص ومزّقوه كل ممزق، وأنشأوا قواعد منهجهم بالاستناد على القرآن والسنة، معبرًا عن روح الإسلام الحقيقي.

(إن البعث الحقيقي للروح الإسلامية وللأمة الإسلامية هو العودة الكاملة لهذا المنهج، هو الأخذ بنصوص القرآن والسنة والعودة إلى قانونها)[٢].

ويقرر الدكتور/ النشار أن علماء السنة لفظوا علماء اليونان لفظًا قاسيًا لأنها مخالفة تمامًا للتصور الإسلامي إلى الوجود والكون... وكشف بكتابه عن نتاج العبقرية

---

(١) يقول أستاذنا الدكتور علي سامي النشار رَحِمَهُ اللَّهُ: «حاولت أوروبا أو العالم الغربي من خلال علمائها ومفكريها أن تفرض علينا ثقافة أوروبا وحضارتها مدعية أن أسلافنا من قبل فعلوا هذا عندما أخذوا بفلسفة اليونان وحضارة اليونان».
د. علي سامي النشار «مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» (ص٥) دار المعارف ١٩٦٥م.
(٢) نفسه.

الإسلامية في التوصل إلى المنهج مستخلصًا إياه من ممثلي الإسلام الحقيقيين من كتب فقهاء وأصوليين ومتكلمين وغيرهم من مفكرين مسلمين، (لا من كتب من يدَّعون فلاسفة الإسلام وهم دوائر منفصلة منعزلة عن تيار الفكر الإسلامي العام)[١].

كذلك وصف هذا المنهج الاستقرائي بأنه المنهج المعبر عن روح الإسلام حيث التناسق بين النظر والعمل. وقال في الختام: «وبواسطة هذا المنهج الإسلامي الاستقرائي نستطيع أن نفسر عداوة الإسلام للفلسفة اليونانية؛ لأنه إذا كان الإسلام يتطلب المنهج الاستقرائي التجريبي وينكر أشد الإنكار المنهج البرهاني في القياس، استطعنا أن نفسر عدم نجاح الفلسفة -وهي القائمة على هذا المنهج- في الإسلام، واعتبار ما يدعونهم فلاسفة الإسلام أو الشرَّاح الأرسطاليسيين كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم امتدادًا للروح الهيلينة في العالم الإسلامي»[٢].

غياب الهدف في الفلسفة الحديثة:

يقول الدكتور الحسيني: «كذلك اتَّضح من دراستنا لبعض المذاهب الفلسفية في العصر الحديث، إن غياب الهدف في الفلسفة هو المعرفة، والمعرفة هي التي ستقود الإنسان إلى العادة...

كذلك لم يخبرنا الفلاسفة عن تلك السعادة، فليس لديهم تعريف محدد لها، والفرق شاسع جدًّا بينهم وبين هدى الإسلام الذي كفل للمؤمنين سعادتهم في الحياتين: الدنيا والآخرة، بل لم تؤد هذه الفلسفات إلى معرفة ما عند وجود الإنسان حاضرًا ومصيرًا، كما لم تؤدّ إلى معرفة ما عن الغايات من خلق الإنسان، كما لم تؤد إلى معرفة ما عن الله تعالى

---

(١) نفسه صفحة (ي)، ويقع كتابه في نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير.

(٢) نفسه (٣٨٠، ٣٨١).

وعن كمالاته أو صفاته وأسمائه الحسنى، هذا باستثناء ما توصَّل إليه الفلاسفة من إدراك للفطرة أو المعرفة الفطرية، وهي المعرفة التي ركَّبها الله تعالى في الإنسان بنوعيها، أي الفطرة من الجانب الإنساني (الأخلاق والقيم)، والفطرة عن الألوهية (أي إدراك وجود الله تعالى وما ينبغي أن يكون عليه من كمالات)، وهذه المعارف لا تحتاج لإدراكها إلى أي نوع من أنواع الفلسفة؛ حيث أنها معارف فطرية لدى كل الناس»(١).

ودعنا من فلسفات القلق والتشاؤم والعبث والغربة عند سارتر وكانط وغيرها.

---

(١) دكتور مهندس محمد الحسيني إسماعيل (الحقيقة المطلقة... الله والدين والإنسان) (ص٤٨٤) مطابع الأهرام بالقاهرة ١٩٩٥م.
كذلك يسخر الدكتور الحسيني سخرية لاذعة من مقولة ديكارت الشهيرة (أنا أفكر إذن أنا موجود) حيث صفقت له البشرية وأثنت عليه وقالت بأنه أبو الفلسفة الحديثة، لأنه قال لنا بأننا موجودون!! ويا لها من مقولة، ويا لها من معرفة كانت غائبة عنا حقًّا!! فلم نكن نعلم بأننا موجودون حتى قال لنا ديكارت أبو الفلسفة الحديثة! (ص٤٤١).

التعريف بالمؤلف

الإمام محمد بن إبراهيم بن الوزير اليماني (ت ٨٤٠هـ)

أقام صرح المنهج الإسلامي الصحيح المستمد من الكتاب والسنة، وقام بمحاربة البدع، وذم التقليد الجامد، ونشر علم الحديث وسائر العلوم الشرعية[(١)]، وكثرت مؤلفاته، فمنها: «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، و«إيثار الحق على الخلق»، و«ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان»، وهو كتاب في غاية الإفادة والإجادة، على أسلوب مخترع لا يقدر على مثله إلا مثلُه، وهو مصدرنا في عرض منهجه، وكان ناقدًا للفلسفة والمنطق اليوناني، معترضًا على المعتزلة في تقديمهم العقل على النقل، ولم يأبه لِما قوبل به من عداء؛ لذلك صح وصفه بأنه الإمام المجتهد المطلق[(٢)].

«وقد رأى ابن الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ أن في قمة التفكير الذي أدى إلى فرقة الأمة وانقسامها يأتي دور التفكير الفلسفي الذي صاغته أهواء البشر، بعيدًا عن الاهتداء لفظًا ومعنًى بالنور الإلهي... ورأى في (علم الكلام) بحوثًا لا طائل تحتها... ورأى أن كتاب «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» هو الصيحة في وجه الأفكار الفلسفية.

وبكتابه «إيثار الحق على الخلق» أراد أن يسلك بالأمة الطريق الواحد الذي لا تتعدد عنده السبل: وحدة الأمة على كتاب الله، واعتصامها بسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقلل من شأن المعتزلة التي رفعت العقل فوق مرتبته، وإقحامه في عالم الغيب»[(٣)].

---

(١) كتاب «مواكب الضياء من رياض العلماء»، جمع وترتيب: د. سيد العفاني، ج٢، (ص٣٨٦)، ط دار العفاني ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

(٢) نفسه (ص٣٨٤).

(٣) نفسه (ص٣٩١).

مضمون كتاب
«ترجيح أساليب القرآن على أساليب الفلسفة اليونانية»

إن الكتاب دال على مضمونه؛ إذ عرَض فيه للأدلة العقلية المستخلصة من الآيات الخاصة بإثبات الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته والنبوة والمعاد وغيرها من مسائل (أصول الدين) التي خاض فيها علماء الكلام بالمنهج الممتزج بالفلسفة اليونانية، فخالفوا -في رأي أحمد أمين- منهج القرآن الكريم والحديث وأقوال الصحابة[1].

وقد أفاض ابن الوزير بكتابه المشار إليه في إقامة الحجج على بطلان من يدعي قصور القرآن عن الوفاء بالدلالة على الربوبية والتوحيد والنبوات، مع التنبيه على قدر القرآن، وأنه في ذلك أجلّ نفعًا وخطرًا وقدرًا وأثرًا من جميع تصانيف المتقدمين المتعمقين، وتدقيق المتكلمين.

وقد وصفه الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «هو الإمام الكبير المجتهد المطلق، المعروف بـ(ابن الوزير)، تبحر في جميع العلوم، وفاق الأقران، واشتُهر صيته، وبعُد ذكره، وطار علمه في الأقطار، وترجم له السخاوي، وترجم له التقي بن فهد في «معجمه»، وترجم له الحافظ ابن حجَر العسقلاني في «إنبائه» في ترجمة أخيه (الهادي)»[2].

وبالجملة، إنه يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمَن بعدهم مِن الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم، ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتبرين، مع إحاطته بحفظ غالب المتون، ومعرفة رجال الأسانيد شخصًا وحالًا

(١) أحمد أمين، «ضحى الإسلام»، ج٣، (ص١٠)، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٣٥هـ-١٩٣٦م.
(٢) (ص٥) من الكتاب.

وزمانًا ومكانًا، وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف... ثم انجمع وأقبل على العبادة، وتوحّش في الفلَوات، وانقطع عن الناس، وذاق حلاوة العبادة، وطعم لذة الانقطاع إلى جانب الحق، فصغر في عينيه ما سوى ذلك... تابع كلام الشوكاني.

ومات بصنعاءِ اليمن، في اليوم السابع والعشرين من المحرم، سنة ٨٤٠هـ، عن خمس وستين سنة، إلا خمسة أشهر، وقبرُه قرب مسجد (فروة بن مسيك) شمال مدينة صنعاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ [١].

بعض مؤلفاته:

وبالإضافة إلى كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» له مؤلفات أخرى، من أجلّها: «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» في أربعة مجلدات ضخمة بالقطع الكبير، و«الروض الباسم» المنتزع من «العواصم والقواصم»، و«إيثار الحق على الخَلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق»، و«البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع»، و«قبول البشرى بالتيسير لليسرى»، و«تنقيح الأنظار في علوم الآثار»، وكتاب «الأمر بالعزلة في آخر الزمان»، و«حصر آيات الأحكام الشرعية»، و«التفسير النبوي»، و«مجمع الحقائق والرقائق»... وغيرها من مؤلفاته المفيدة ورسائله العديدة[٢].

(١) نفسه (ص٦).
(٢) (ص٣) من الكتاب.

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحابته الصالحين، وكافة عباده الأخيار أجمعين.

الحمد لله الذي جمع بالقرآن العظيم لأهل الإسلام بين أصح العلوم وأوضحها في الأفهام، وأفضل الأعمال وأيسرها على الموفقين من الأنام، حيث أربى -لما أودعه من البراهين العظام- على فنّيِ المنطق والكلام؛ لما فيه من النفع العام للخواص والعوام، ولسلامته مما اشتملا عليه في الجليات من فضلات الكلام، والتعب الكثير في مجرد فهم عبارات الفلاسفة والمبتدعة في مداحض الأقدام، ولأمرٍ ما فضّل الله -سبحانه- المَهَرة من حامليه على جميع الأولياء الأعلام، حيث رفعهم إلى مراتب السفَرة الكرام، الذين هم أفضل الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وجعل التفاوت فيما بينه وبين سائر الكلام كالتفاوت فيما بين الرب جَلَّ جَلَالُهُ وبين سائر الأنام، ومِثل هذا التفاوت لا تطمح إلى دركه الأفهام، ولا تجنح إلى تخيّله الأوهام، ويسّره سبحانه للذكر على الدوام؛ رحمةً منه لنا، وحُجّةً علينا، لا يتغيران لمرور الليالي والأيام، وجعل العلم بمحكماته نورًا ساطعًا يرفع كل ضلال وظلام، ولم يكلف أحدًا ما لا يعلمه من متشابه كلام المَلِك العلّام، كما سيأتي نصًّا جليًّا في كلام أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا عسر سبحانه على المكلف فهمَ ما خاطبه به من دلائل الإيمان والإسلام، وشرائع الحلال والحرام، وفوائد الأخبار، وسائر الأحكام، وبدائع البلاغة الموصوفة بالتشابه والإحكام، وإلى من نزل عليه ليهتدي به الأَنام، فنصّ من فضائله على ما يكلّ الألسنة والأقلام، أُوجّه أفضل الصلاة والتحيات والسلام، وعلى آله الأئمة الأعلام الذين روَوا من فضائله ما يَشفي الأُوام ويلصق أُنوف الجاحدين بالرغام.

أما بعد... فإنه نبغَ في هذا الزمان مَن عادى علوم القرآن، وفارق فريق الفرقان، وصنّف في التحذير من الاعتماد على ما فيه من التبيان في معرفة الديان وأصول قواعد الأديان، وحث على الرجوع في ذلك إلى معرفة قوانين المبتدعة واليونان، منتقصًا لمن اكتفى بها في معجز التنزيل من البرهان، مقبحًا لتلقّي كثير من محكماته بالقبول والإيمان، لا جرمَ أن الله تعالى وإن وصفه بأنه لِقوم هُدًى، فقد وصفه بأنه على قوم عمًى، فحسبوه حين عموا عنه وصموا أنه لِأمر يرجع إلى ذاته، والخلل يعود إلى بيّن آياته، ولم يعلموا أن ذلك يخصهم لِما في قلوبهم من العمه والعمى، والرداءة والردى، فكأنهم المنافقون -ريبًا، وخبثًا، وبهتانًا- حين قالوا: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤].

وَمَـــنْ يَـــكُ ذا فَـــمٍ مُـــرٍّ مَـــرِيـــضٍ يَجِـــدْ مُـــرًّا بِـــهِ الْمـــاءَ الـــزُّلالا

ومن العجب أنه يتعاطى العلم بالذات وبالصفات، ويتأول جميع المتشابهات، كما يعلمها علّام الغيوب والخفيات، مع منعه غيرَه من الاعتماد في التوحيد على الآيات المحكمات وأمهات المتشابه البيّنات؛ وما هذه إلا مضادة للمعقولات، ومناقضة للمنقولات، فما أصحَّ ما منَعه وعدَّه من المحال! وأبعدَ ما تعاطاه من مناسَبة الحال! كما يتضح -إن شاء الله- عند ذكر أدلة الأقوال، وتنقيح البراهين والاستدلال، فلولا ذلك لَاستوى العالم والجاهل، وتشابهت المناهج والمَجاهل، وقال مَن شاء ما شاء، وعاد الخبر المحتمل للنقيضين كالإنشاء. وقد رأيت التقرب إلى الله تعالى ببيان نقض ما ادعاه في الأمرين، وإفساد جميع ما تعاطاه مفصلًا في فصلين؛ رجاء أن أكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦]، ولِما ورد في فضل من انتهر صاحب بدعة، من غير رياء ولا سمعة، مع الإشارة إلى جمل شافية في فضل كتاب الله تعالى وفضل حامليه، وذكر نبَذ من الأخبار الواردة فيه، وبيان بعض ما اشتمل عليه من الدلائل، المُغْنية في الاعتقاد عن الاشتغال بكتب الأوائل.

فصـــل

في بطلان ما ادّعاه من قصور القرآن عن الوفاء بالدلالة على الربوبية والتوحيد والنبوات، وبيان خلافه في ذلك للمعقول والمنقول وإجماع المسلمين

مُقَـدّمَة

في التنبيه على عظم قدر القرآن، وأنه في ذلك أجلّ نفعًا وخطرًا وقدرًا وأثرًا من جميع تصانيف المتقدمين المتعمقين وتدقيق المتكلمين، وهو أنواع:

النوع الأول: قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد:٣١]، فلما كان لعظيم قدره ونفعه وبركته ونوره وهدايته وسرّه وخاصّيته، التي لا يحيط بمعرفتها على التفصيل والتحقيق إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، بحيث يؤثر في الجبال الراسيات والصخور القاسيات، فكيف لا يؤثر في قلب المتدبر له، المتعلِّم منه، المعوَّل في جميع المهمات عليه، الراجع في اقتباس نور الهدى إليه؟ وأي كتاب يوجَد في العالم موصوفٍ بمثل هذا الوصف؟ والواصف له الملك الرب الجليل علام الغيوب، الذي يستحيل عليه الخطأ والتعظيمُ لما لا يستحق التعظيم، والغلوُّ القبيح في الكلام بغير الحق! فكيف يترك ما في هذا الذكر المبين من البراهين، ويعتمد على تآليف المخلوقين وأساليب الجدليين؟

ثم تورد إشكالات على نصوصه النيّرة، وشكوك في علومه البيّنة، ويعاب من دعا إلى الاعتماد عليه، ويضلَّل من كان رجوعه في المشكلات إليه.

النوع الثاني: قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

فهذه الآيات وأمثالها الواردة بصيغة الاستفهام المتضمن معنى الإنكار- فيها مبالغة واضحة عند علماء البلاغة في وضوح كفايته، ودلالته على وجوب الإيمان، وعظم النفع في تدبره، بحيث لا يماثله في هذه الأشياء غيرُه ولا يُقاربه.

النوع الثالث: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، وما في معناها من الآيات.

فالاشتغال بالنظر في علوم هذا المعجِز الجليل الذي أعجز الخلق أجمعين بالنصوص القرآنية والضرورة العقلية- أَولى من الاشتغال بعلوم الأمثال والأجناس من سائر الناس، فالعائب لمن دعا إلى هذا: خارجٌ عن العلم وأهله، لاحقٌ بالعالَم البهيمي في فاحشِ جهلِهِ.

النوع الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٥٢]، فانظر إلى موقع قوله: ﴿ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ وما دل عليه من مطابقة ما اشتمل عليه القرآن من الإيجاز في موضعه، والاكتفاء بالجملة في موضعه، لِما تقرر في علم الله تعالى بالغيوب من مصالح المؤمنين الذين خصهم بأنه هدًى لهم ورحمة، فأيُّ كتاب فُصِّلَ على علمٍ مثلِ هذا العلم الذي صدر عنه تفصيلُه؟

ونحو ذلك قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١] فإنّ معنى (القيّم): المنفيّ عنه العوج، هو الذي بلغ الغاية القُصوى في الإحكام والإتقان، وانتفاء الخطأ والتعارض والتناقض وإيهام الضلال، و(العِوج) بكسر العين: يختص المَعاني، وبفتحها: يختص الأجسام، وإنما جمع بين نفي العوج وإثبات القيومية له -وأحدهما يُغني عن الآخر- تأكيدًا لذلك، ومبالغةً فيه، فكيف يقوم مقامه سواه أو يساوَى كتابٌ بكتاب الله تعالى؟

النوع الخامس: قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢]، وفي معناها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وإنما كانت في معنى الأُولى؛ لأن القرآن آكدُ مما قضى به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبعدُ من كل ريب، فمَن استراب في شيء منه فهو فيما سواه أعظم ريبًا، ومن ولع بالنظر في دقائق الكلام المختلف فيها بين أهله، وأعرض عن التدبر لكتاب الله والفرق بين نصوصه وظواهره وخصوصه وعموماته من غير أن يحكم دليل ما قطع به ويستوثق من صحته، ثم يسمع نصوص القرآن تُخالف ما هو عليه، فيعتقد فيها مِن تمحُّل وجوه المجاز ما لا يصحُّ مثلُه في العربية، ولا مُوجب له لو حقّق النظر في الفطرة السليمة العقلية، وذلك مثل من يقطع على استحالة تسبيح الطير وغيرها من الحيوان مع قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور:٤١]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]، وقوله تعالى حكاية عن نبيه سليمان -عليه أفضل الصلاة والسلام-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى

ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل:١٨، ١٩] الآية، وقوله تعالى حكاية عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ [النمل:٢٠-٢٣] الآيات إلى السجدة، وقد تأولها الزمخشري، إلا كلام النملة والهدهد فلم يستطع، ولزمه بذلك الحق، وإن كان إقراره بكلامهما يدل على جواز الجميع! وليس المسوغ للتأويل إلا عدم الجواز، واعتذارهم بالفرْق بأن كلام النملة والهدهد معجز خارق، لا أن للحيوان البهيمي كلامًا مردودًا بوجوهٍ خمسة، منها: أن المعجز لا يكون إلا بعد الدعوى للنبوة على وجه يعلمه المكذّب والمستدلّ، وعِلم كلام الطير والنملة من خواصّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل:١٦]، ومنها: أن قوله في الهدهد: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ [النمل:٢١] يدل على أنه عاقل مستحق للعقوبة، وثالثها: أن قوله: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل:٢٧] دليل على أنه متكلم مختار، ولو كان ذلك معجزًا لكان الكلام في الحقيقة لله -تعالى عز وعلا-، ولو كان كذلك لوجب العلم بصدقه، ورابعها: أن قوله تعالى في النملة: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ دليل على ذلك، ولو كان معجزًا منسوبًا إلى الله تعالى لم يكن لِضحكه منه وجهٌ، ولكان بالروعة منه والإجلال له أَولى، وخامسها: أنه لا مانع في العقل من صحة ذلك ألبتةَ.

ونحن نشاهد لها من الحزم منا، والبعد من المضارّ، وحسن الحيلة في كسب المعيشة، والتآلف والتعارف والتعاون والتفاهم- ما يؤيد ذلك، مع ما جاء في الحديث على لسان

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المبين لكتاب الله تعالى من ذلك. وقد ذكر الإمام المهدي محمد ابن المطهر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ جملة صالحة من ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة:١٥٩]، وذكر فيه ما ذكره السيد الإمام الناطق بالحق أبو طالب في «أماليه» من كلام الثعلب، وطوّل الكلام في هذا في قدر كراس في كتابه «عقود العقيان» ومن مواضع ذلك: كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» للقاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، فإنه أفردَ ذلك في فصل تركته اختصارًا، والقصد بذكر هذا تمثيل ما حذرت منه من التزام الإيمان بما في كتاب الله تعالى مما تناوله بعض المتكلمين، ويعتقدون القطع ببطلان صحته، ويتمحلون له من التجوز ما يتنزه أحدهم عن مثله في كلامه وبيانه!

النوع السادس: أنه قد اختُص من شرائف الصفات بما لم يشاركه فيه غيره، من كونه كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وكونه معجزًا، من أنه قرآن مجيد في لوح محفوظ، وقرآن كريم في كتاب مكنون، وكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وإنه نور، وإنه شفاء لما في الصدور، ومنه: قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦]، فجعلَ أهل العلم الحقِّ الذين هم العلماء حقًّا هم المختصون بمعرفة ذلك.

وكذلك في الحديث عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «القرآن هو الشفاء»، رواه السيد أبو طالب في «أماليه»، وابن ماجه بنحوه في كتاب الطب من «سننه». فما سبب نقصانه وقصوره؟ فإن ادعى هذا الجاهل أن السبب أنه لم يذكر فيه حجة أكذبته نصوصُ القرآن، ونصوص علماء الإسلام، وإن ادعى أن القصور في عبارته أكذبته الضرورة والإجماع.

النوع السابع مما يدل على تعظيم القرآن عقلًا: أن العقلاء ما زالوا يستدلون على حسن الكتب وعظم نفعها بمقدار صاحبها، وقالت العرب: «كل إناء يرشح بما فيه»، ولا شك أن تآليف العلماء قد تفاضلت على قدر علومهم، والقرآن كلام علام الغيوب، وقد أنزله هدًى وشفاءً ونورًا وبيانًا، ولا شك أن في العلوم مصالح ومفاسد، كما في قوله تعالى في تعلم السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢]، وقال في الساعة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال:٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] إلى قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة:١٠٢]، وفي قوله تعالى للحواريين: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥] إشارةٌ إلى أن زيادة العلم في بعض المواضع قد تكون سببًا في زيادة العذاب، فيكون مصلحة في طي كثير من العلوم، وإليه الإشارة بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩]، وفي سبب نزولها حديثان عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورجال كل منهما رجال الصحيح، خرجهما الهيثمي في «مجمع الزوائد» مفرقين في تفسير سورة (هود) وتفسير (الإسراء)؛ فإذا تقرر هذا فالرجوع إلى كتاب مَن يعلم مِن مصالحنا ومفاسدنا ما لا نعلمه- أولى بنا، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، وهذا كله بعد علمنا بأنه كلام الله، بدليل المعجزات، وطريقة السلف، كما سيأتي بيانه مبسوطًا إن شاء الله تعالى.

النوع الثامن: ما ثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته من الحث على الرجوع إلى كتاب الله، وتفضيله على غيره مما فيه خير وهدًى، وتقصي ذلك يطول

ويمل، فلنقتصر من ذلك على حديث مشهور يذكر بأمثاله، وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب[1] عَلَيْهِ السَّلَامُ في «أماليه»، والحافظ المحدث أبو عيسى الترمذي في «جامعه» من حديث الحارث بن عبد الله الهمذاني صاحب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فأخبرته، فقال: قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أما إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ألا إنها ستكون فتنة**»، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١، ٢]، **من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم**». انتهى هذا الحديث الجليل. وقد رواه السيد الإمام أبو طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ في «أماليه» بسند آخر من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنحوه، ورواه أبو السعادات ابن الأثير في «جامع الأصول» من طريق ثالثة، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يزل العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقًّى بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعنى في مقتضى: الإجماعِ، والمنقول، والمعقول.

النوع التاسع: إجماع علماء الإسلام من جميع الطوائف على أن القرآن يفيد ما ادعيت

---

(١) هذا الحديث النبوي الشريف ورد في «الأمالي» للإمام أبي طالب، و«صحيح الترمذي»، وفيه دلالة في الرجوع إلى القرآن.

من معرفة أدلة التوحيد من غير ظن ولا تقليد، وكما أن المتكلم ينظر في كتب شيوخه ليتعلم منها الأدلة من غير تقليد غيره، فكذلك من نظر في القرآن يتعلم منه الأدلة من غير تقليد، بل القرآن العظيم هو الذي منه تعلم المتكلمون النظر، لكنهم غالوا في النظر، ولم يقتصروا على القدر الكافي النافع المذكور في كتاب الله تعالى، وذلك يتضح بإيراد كلام علماء الفرق المختلفة في المصنفات الشهيرة، وعدم إنكار شيء من ذلك على أحد منهم في الأزمنة الطويلة والقرون العديدة، مع اختلافهم واختلاف المقررين لهم أغراضًا وبلدانًا وأنسابًا وأزمانًا، لم يجمعهم بلد ولا مذهب ولا زمن ولا نسب ولا غرض، فأولهم: أبو الأئمة وإمام الأمة أمير المؤمنين وحجة المحققين، علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مشهور عنه في «نهج البلاغة» وغيره.

روى السيد الإمام أبو طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذلك ما يكفي ويشفي، ولم يتأوله كما هو عادته فيما يجب تأويله عنده، فقال: أخبرنا أبي رَحِمَهُ اللَّهُ، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن عبد الله بن سلام، أخبرنا أبي قال: حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا علي بن الخطاب الخثعمي، حدثنا أحمد بن محمد الأنصاري عن بشير، عن زيد بن أسلم أن رجلًا سأل أمير المؤمنين عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ في مسجد الكوفة فقال: يا أمير المؤمنين، هل تصف لنا ربنا، فنزداد له حبًّا وبه معرفة؟ فغضب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، ثم صعِد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سرد الخطبة إلى قوله: أيها السائل، اعقل ما سألتني عنه، ولا تسأل أحدًا عنه بعدي، فإني أكفيك مؤنة الطلب، وشدة التعمق في المذهب، فكيف يوصف الذي سألتني عنه وهو الذي عجزت الملائكة -مع قربهم من كرسيّ كرامته، وطول ولههم به، وتعظيمهم لجلال عزته، وقربهم من غيب ملكوت قدرته- أن يعلموا من علمه إلا ما

علمهم، وهم من ملكوت القدس بحيث هم من معرفته على ما فطرهم عليه، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته، وتقدمك فيه الرسل بينك وبين معرفته، فَأْتم به، واستضئ بنور هدايته، إنما هي نعمة وحكمة أوتيتها، فخذ ما أوتيت (وكن من الشاكرين)، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه، ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عن أئمة الهدى أثره، فكِل علمه إلى الله سبحانه؛ فإنه منتهى حق الله عليك.

وله عَلَيْهِ السَّلَامُ نحو هذا في وصيته لولده الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي خير وصية من خير موص إلى خير موصى إليه، وستأتي، فينبغي تأملها حق التأمل، والعمل بما فيها، ومراغمة المبتدعة بها.

ومنهم من أئمة العترة الطاهرة: الإمام المؤيد بالله يحيى[1] بن حمزة عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه ذكر في أوائل كتابه «التمهيد» في القول بوجوب النظر، فقال: إن أكثر القرآن مشتمل على ذكر الأدلة وشرحها. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ولنذكر منها آية واحدة ليقاس بها الباقي، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧] إلى آخر السورة، فالله تعالى حكى في هذه الآية إنكار المنكرين للإعادة، وقرر وجه شبههم، وأجاب عن كل واحدة منها بجواب يخصه، وطول في بيان ذلك، إلى قوله: وأما الآيات الدالة على إثبات الصانع وصفاته والنبوة، والرد على منكريها- فأكثر من أن تحصى.

ومن علماء العترة وساداتهم الذين ذكروا ذلك وحثوا عليه وصنفوا فيه: السيد العلامة يحيى بن منصور رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ومن أواخر ما صنف في ذلك: كتابه المسمى بـ«الجمل الإسلامية»، فإنه شحنه بالاحتجاج بالآيات القرآنية.

---

(١) هو الإمام المؤيد بالله، يحيى الحسيني بن حمزة، صاحب كتاب «الطراز» وكتاب «التمهيد»، توفي بمدينة ذمار سنة (٧٤٩هـ).

ومن علماء الزيدية وقدماء الشيعة: محمد بن منصور الكوفي، المتفق على علمه وفضله، وقد بالغ في هذا المعنى وصنف فيه كتابًا مفردًا، سماه «كتاب الجملة والألفة»، ونقل منه السيد العلامة أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمن العلوي الحسني في كتابه «الجامع الكافي» الذي لم يصنَّف في فقه الزيدية مثلُه، فقال في المجلد السادس منه في كتاب (الزيادات) ما لفظه: «وإنما جاءت الرسل عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بغاية الحجة على من سألها ما بيّن الله، وأنزل في كتبه إليها، ولم يعد ذلك إلى غيره، ولن تكون حجة أبلغ على الله من حجج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ التي بلغوها عن الله تعالى خلقَه، ولا أهدى لهم إن قبلوها، قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]، وقال إبراهيم في محاجة قومه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٠] إلى قوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء:٨١]، فدلهم عليه بالقدرة والتدبير.

وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مسألة فرعون إذ يقول: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٤٩-٥٢] الآيات، وقال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]؟ قال موسى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آية أخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨]، فلم يتعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجواب عند مسألة فرعون إياه، غير ما أنبأه الله به في الكتاب، وفرعون اللعين أعمى العمين، وأعتى العاتين، وأخبث المتعنتين! إجابة موسى -عليه أفضل الصلاة والسلام- عن الله عَزَّ وَجَلَّ بالدلالة

من خلق الله عليه، وكذلك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين سأله قومه عن الله عَزَّ وَجَلَّ؛ إذ يقولون: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ [الإسراء:٥١]؟ فأمره الله تعالى بالجواب لهم: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥١]، وقال من لا شريك له: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٧، ٧٨]، وقال لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٧٩، ٨٠]، فلم يكلف سبحانه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحجة والجواب غير ما قاله في الكتاب. وبلغنا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له قومه: انسب لنا ربك، فنزل عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾». انتهى بحروفه.

وهذا أيضًا قول المعتزلة، ممن صرح به منهم: قاضي القضاة عبد الجبار، فإنه قال في المجلد الرابع من «المحيط»، في النبوات، في ذكر إعجاز القرآن ما لفظه: «واتفق فيه أيضًا استنباط الأدلة التي توافق العقول، وموافقته ما تضمنه لأحكام العقل على وجه يبهر ذوي العقول ويحيرهم، فإن الله سبحانه بينه على المعاني التي يستخرجها المتكلمون بمعاناة وجهد، بألفاظ سهلة قليلة تحتوي على معان كثيرة، كما ذكره عَزَّ وَجَلَّ في نقض مذاهب الطبيعيين في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد:٤] الآية، وفي الآيات التي ذكرها في نفي الثاني، وفي غير ذلك من الأبواب التي لا تكاد تحصى». انتهى بحروفه.

ومنهم: الحاكم أبو سعيد المحسن بن كرامة، فإنه قال في «شرح العيون» في الفصل السابع منه ما لفظه: «فلا شبهة أنه دعاهم -يعني النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى هذه الأصول، والنظر في الأدلة، بما تلا عليهم من الآيات في أدلة التوحيد والنبوات.

ومنهم: مختار بن محمود، أحد ناصري مذهب أبي الحسين البصري، فإنه قال في كتابه «المجتبى» في الاستدلال بطريقة الأحوال، في الطريق الرابع من الباب الثاني بعد ذكر الاستدلال وقد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]. وقال في مسألة الأطفال: وإن التمسك بكتاب الله المبين أقوى أركان أصول الدين، وكذلك هو قول سائر الطوائف.

وقال القاضي عياض في «الشفا» في ذكر إعجاز القرآن: «ومنها: جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة -ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة- معرفتها، ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع والحجج والتنبيه على طرق الحجج العقلية، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بينة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد، رام المتحذلقون بعد أن ينصبوا أدلة مثلها، فلم يقدروا عليها؛ كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، إلى ما حواه من علوم السير، وأنباء الأمم، والمواعظ والحِكم».

وقال الفخر الرازي الأشعري في كتابه الأربعين في الكلام على النبوات في ذكر المعجزات العقلية: بل أقر الكل بأنه لا يمكن أن يزاد في تقرير الدلائل على ما ورد في القرآن.

وقال الغزالي -وهو من أئمة الطائفة الشافعية في الفقه والأصول- في الأصل الأول من الركن الأول من الرسالة القدسية في معرفة وجود الرب تعالى: وأولى ما يستضاء به من الأبواب، ويسلك من طريق النظر والاعتبار: ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، ثم ساق الآيات القرآنية.

وقال صاحب «الوظائف في مذهب أهل الحديث والأثر» في الدليل على معرفة الخالق سبحانه ووحدانيته، وعلى صدق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى اليوم الآخر: وأدلة هذه الأمور في القرآن: أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٣١]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق:٦-١٠]، وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٢٤-٣١]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ:٦، ٧] إلى قوله: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ:١٦]، وأمثال هذه الآيات، وهي قريب من خمسمائة آية. ينبغي للخلق أن يعرفوا جلال الله وعظمته بقوله الصادق المعجز...» إلى قوله: «فإن الدلالات الشرعية الصادرة عن اللطيف الخبير، وعن رسوله البشير النذير صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقنع وتُسَكّن النفوس، وتغرس في القلوب الاعتقادات الصحيحة الجازمة.

وأما الدليل على وحدانيته فيقع بما في القرآن من قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]، ونظائرها.

وأما صدق رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيستدل عليه بقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، ونظائرها.

وأما اليوم الآخر فيستدل عليه بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، وبقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٦-٤٠]، وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج:٥] إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦]، وأمثال ذلك في القرآن كثيرة؛ فهذه أدلة قاطعة جلية تسبق إلى الأفهام ببادئ الرأي وأول النظر، ويشترك كافة الخلق في دركها، فأدلة القرآن والسنة مثل الغذاء، ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع والرجل القوي؛ ولهذا كانت أدلة القرآن سائغة جلية، ألا ترى أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] وأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمدبرين، فكيف ينتظم في جميع العالم؟ وأن من خلق علم ثم خلق، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]؟ فهذه أدلة تجري مجرى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيًّا...» إلى آخر كلامه.

وبالجملة، فتقصي كلام علماء الإسلام في مثل هذا يمل، والحاجة إلى الاحتجاج عليه من عود الدين غريبًا من أدل دليل على عناد المخالف.

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأَفْهَامِ شَيْءٌ ... إذا احْتَاجَ النَّهَارُ إلى دَلِيلِ

فصل

في ذكر ما تيسر من نصوص أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الاكتفاء بالجمل، والحث على ذلك، وكراهة الغلو في علم الكلام؛ ليعلم بذلك مذهبهم، ويعلم به كذب مدعي إجماعهم على خلافه.

من ذلك: قول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيته لولده الحسن عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «واعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به من وصيتي: تقوى الله تعالى، والاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك، والصالحون من أهل بيتك؛ فإنهم لم يدعوا النظر لأنفسهم كما أنت ناظر، وفكروا كما أنت مفكر، ثم ردهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عما لم يعرفوا؛ فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا، فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات وغلو الخصومات... » إلى آخر ما ذكره في هذا المعنى في «نهج البلاغة».

وتأوله ابن أبي الحديد بما يستحيى من ذكره، من أن ذلك لعلم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بقصور ولده الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ من درك هذا العلم! وكفى شاهدًا على بطلان هذه البدعة ما أدت إليه من تفضيل شرار القرون في قواعد الإيمان على ريحانة المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد شباب أهل الجنة، المجمع على إمامته بعد أبيه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكونها لا تصح إلا مع تعسف التأويلات الرادة لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم لسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم لأقوال السلف وأفعالهم وتقريراتهم، ثم لنصوص الأئمة من أهل بيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكيف يظن بأمير المؤمنين أنه يجعل وصيته لولده الحسن من أغمض المتشابهات وأدق الشبهات؟

هيهات هيهات لولا دفع الضرورات وابتغاء الفتنة بالتأويلات! ومن ذلك: ما تقدم قريبًا عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في الرجوع إلى كتاب الله.

والذي حمل ابن أبي الحديد -مع علمه- على ذلك التأويل: ظنه أن ذلك الكلام يستلزم جواز الجهل بالله تعالى، وتقليد كل أحد لأهله؛ وليس كذلك؛ لأنه إنما أمره باتباع الأولين من أهله، وهم حجج الإله على البرايا، منهم: علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، المنصوب علمًا عند الاختلاف، بل منهم: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي شهدت بصدقه الآيات والمعجزات، لكنه أمره أن يكتفي بالدليل الجملي الدال على صدقه، الذي علم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الحسن قد عرفه، ونهاه عن التعرض للتفاضل، والله أعلم.

في هداية الخصوم
والكلام فيه من وجوه

الأول: أن الحجة عليهم لله سبحانه قد تمت قبل نصبنا ونصبكم للبراهين، بما خلق الله لهم من العقول، وأرسل إليهم من الرسل، وبيّن لهم ما في كتبه الكريمة من الأدلة، فكما أنهم لو ماتوا قبل مناظرتكم لهم حسن من الله تعالى تعذيبهم؛ لتقدم كمال الحجة عليهم، فكذلك يحسن منا قتالهم وقتلهم قبل مناظرتهم، وإنما ورد في الشرع دعاؤهم إلى الإسلام قبل القتال، فلم يوجبها أحد بالإجماع. ومن جحد آيات الله وبراهين القرآن الجلية فهو لدقائق الكلام أجحد، ومن قبولها أبعد، ولكن المبطلين كما حكى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنهم في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٣، ١٤]، وقال تعالى حاكيًا عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم:١٠]، قالوا ذلك لما قال لهم الكفار: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم:٩]، وفي قول الرسل -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم:١٠]تنبيه على الدلالة على الله بذلك، وإنه كاف لا يحتاج إلى زيادة عليه. فإن كان مرادكم الفصل بين المختلفين وجمع كلمة العالم أجمعين، فذلك غير ممكن لأحد من المخلوقين، ولا يقدر عليه إلا رب العالمين، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كتابه المبين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج:١٧]، ولهذا سمى الله تعالى يوم القيامة يوم الفصل.

الوجه الثاني: أن في المتكلمين من المعتزلة وغيرهم طوائف لا يوجبون النظر في علم الكلام، منهم: أهل المعارف الضرورية، ولا يلزمهم ترك النظر مطلقًا، فكذلك نقول: فإن قيل: فيمَ ينظر الناظر؟ قلنا: فيما أمر الله بالنظر فيه، وفيما نظر فيه السلف، وإن كان المنظور فيه أمرًا ضروريًّا فإن معنى النظر فيه: استحضار تصوره، ودوام التذكر له، وترك السهو والغفلة عنه؛ ولذلك شرع الله الفكر في الموت والمرض ونحوهما، مع أنها أمور معلومة بالضرورة، فالغفلة عنها أقبح غفلة وأضرها: قال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام:١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ:٤٦]، وقال تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام:٩٩]، ومن ثم حسن الخبر بالموت، بل دخول المؤكدات على الخبر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون:١٥]، فإن الأخبار بالمعلومات لا تصح، ودخول المؤكدات على الإخبار بها لا يحسن لولا أنه نزل المخاطبين -لشدة غفلتهم عن هذه المعلومات- منزلة الجاحدين المنكرين لها، كما ذكره علماء المعاني في قول الشاعر:

جاء شقيق عارضًا رمحه إن بني عمك فيهم رماحُ

وغاية ما اشتملت عليه كتب الدقائق المبكية والمواعظ المشجية هو التذكير بالضروريات، فكيف يقال فيمن ترك النظر في علم الكلام والتعمق في دقائقه: إنه يلزمه إهمال الفكر والنظر فيما ورد في القرآن والخبر والأثر؟ ولقد صنف الجاحظ -وهو ممن يقول: إن المعارف ضرورية- كتاب «العبر والاعتبار»، فأتى فيه بما يقضي له بعلو القدر

في العلم وتعمقه في التفكر في عجائب المخلوقات الضرورية، وكذلك النظر في علم التشريح، وعجيبِ خلق الإنسان، والتأمل لما يدرك من ذلك بالعِيان. وقد حث الله تعالى على النظر في المشاهدات: قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس:٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ [يس:٣٣] الآيات، وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان:١٠] الآية.

لكن المخالف يقول: إن المراد بالنظر في هذه الأمور نظر مخصوص ينبني على مقدمات مرتبة مركبة تركيبًا مخصوصًا على وجه ينتج العلم على سبيل الاختيار وغيره، يقول: إن المراد بالنظر: الفكر الذي يهجم على القلوب بعد صرف اليقين ورسوخ الإيمان وتعظيم المعبود أو أحدهما، ويتفاوت الحاصل من ذلك تفاوتًا لا يقف عند حد، وربما أبكى أو أقلق أو أصعق على حسب حكمة الله تعالى فيما يهبه للعبد عقب النظر، وعدم الاختيار فيه عقب النظر وتفاوته معلوم، وعلى هذا ما قال الشيخ مختار بن محمود المعتزلي في كتابه «المجتبى» في حد حقيقة النظر: أنه تجريد العقل عن الغفلات.

وحكى عن شيخه محمود الملاحمي أنه لا يشترط في العلم بالله: أن ينبني على المقدمات المنطقية والأساليب النظرية، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وكيف ينكر هذا ويستبعد؟ وقد حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الهدهد، وهو من العالم البهيمي، أنه وحد الله

تعالى، واحتج على صحة توحيده بذلك، حيث قال سبحانه حاكيًا عنه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥]، يعني: المطر والنبات، فاحتج بحدوث هذين الأمرين المعلوم حدوثهما، مع تكررهما، وحاجة جميع الحيوانات إليهما، مع أنه ما قرأ في المنطق ولا عرف علم الكلام! وقد قرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلامه وحسنه، فكيف لا يحسن مثله من إنسان ناطق عاقل مكلف مخاطب؟ وسوف يأتي الدليل على بطلان قول من تأول كلام الهدهد.

وتوضيح الأمر في ذلك: قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس:١٧-١٩]، وحاصل هذا أن النظر عند أهل المعارف أو بعضهم شرط اعتباري، ووقوع العلم واليقين بعده كوقوع الرقة والبكاء والخشوع ونحو ذلك مما هو من فعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونفعه معلوم وإن لم يقع على ترتيب أهل المنطق، ومستند العلم التجربة الضرورية، فإنه يقع للصالحين -ممن لا يعرف ترتيب المقدمات بذلك النظر- من اليقين والخشوع ما لا يقع للمتكلمين، بل قد قال القاسم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما رأيت كلامًا قط له خشوع الجمل الجمل.

وقد اشتملت خطب أمير المؤمنين ومواعظه، وسائر الأئمة، على أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطقيين، ولا تقاسيم أساليب المتكلمين، ودرج السلف على ذلك، وكان مما استجادوه وسار بينهم: قول زيد بن عمرو بن نفيل رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

رضيت بك اللهم ربًّا فلن أرى	أدين إلهًا غيرك الله ثانيا
وأنت الذي من فضل منّ ورحمة	بعثت إلى موسى رسولًا مناديا
فقلت لموسى: اذهب وهارون فادعوَا	إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له: هل أنت سويت هذه	بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا؟

وقولا له: هل أنت رفعت هذه ... بلا عمد ارفق إذا بك بانيا
وقولا له: هل أنت سويت وسطها ... منيرًا إذا ما جنه الليل هاديا؟
وقولا له: من مرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا؟
وقولا له: من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا؟
ويخرج منه حبه في رؤوسه ... وفي ذاك آيات لمن كان واعيا

فهذا أسلوب الأنبياء والأولياء والأئمة والسلف في النظر، وخالفهم بعض المتكلمين، وأنواع المبتدعة، فتكلفوا وتعمقوا وعبروا عن المعاني الجلية بالعبارات الخفية، ورجعوا بعد السفر البعيد إلى الشك والحيرة والتعادي والتكاذب.

وقد اعترف أكثر المتكلمين بالوقوع في الحيرة والأمور المشكلة المتعارضة، فقال ابن أبي الحديد -وهو من كبراء المعتزلة- بعد عظيم توغله في علم الكلام:

فإذا الذي استكبرت منه هو الـ ... ـجاني على عظائم المحنِ
فظللت في تيه بلا علم ... وغرقت في بحر بلا سفنِ

وقال الشهرستاني في أول «نهايته»:

وقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالمِ
فلم أر إلا واضعًا كف حائرٍ ... على ذقن أو قارعًا سن نادمِ

وقال الرازي في مثل ذلك:

العلم للرحمن جل جلاله ... وسواه في جهلاته يتغمغمُ
ما للتراب وللعلوم وإنما ... خُلقتْ[1] لتعلم انها لا تعلمُ؟

(١) الضمير في (خلقت): للأجسام المخلوقة من التراب، والمعنى: ما للأجسام الترابية المظلمة، ودرك نهايات العلوم النيرة؟ اهـ. مصححه: عيد الوصيف.

وله أيضًا:

نهايات إقدام العقول عقالُ ... وأكثر سعي العالمين ضلالُ

وقال صاحب كتاب «الإلمام»:

تجاوزت حد الأكثرين إلى العلا ... وسافرت واستبقيتهم في المراكزِ

وخُضتُ بحارًا ليس يُدرَك قعرُها ... وسيّرت نفسي في فَسيح المَفاوزِ

ولجّجتُ في الأفكار ثم تراجع اخـ ... ـتياري إلى استحسان دين العجائزِ

وللشيخ العارف القدوة عمر بن محمد السهروردي كلام جيد في هذا المعنى، ذكره في الباب العاشر من كتابه «عوارف المعارف»، ومنه:

إن الملك ظاهر الكون، والملكوت باطنه، والعقل لا يدخل الملكوت، ولا يزال مترددًا في الملك؛ ولهذا وقّف على برهان من العلوم الرياضية. والعقل لسان الروح، والبصيرة التي هي الهداية قلب الروح، واللسان ترجمان القلب، فكل ما ينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه، وليس كل ما عند الذي يترجم عنه يبرز إلى الترجمان؛ فلهذا المعنى حُرم الواقفون مع مجرد العقول العرية عن نور الهداية التي هي موهبة من الله تعالى عند الأنبياء وأتباعهم- الصوابَ، وأسبل دونهم الحجاب؛ لوقوفهم مع الترجمان، وحرمانهم غاية البيان. اهـ. مع اختصار بعض ما ذكره -نفع الله بعلومه-. وكلام هذه الطائفة في مثل هذا الكلام ذوق لا سبيل إلى كشف صحته إلا بالتجرِبة، وهو نظير كلام الأطباء في الطب.

الثالث: أنها وردت نصوص تقتضي العلم أو الظن أن الخوض في علم الكلام، على وجه التقصي للشبهة، والإصغاء إليها، والتفتيش عن مباحث الفلاسفة والمبتدعة المشكلة في كثير من الجليات- مضرة عظيمة، ممرضة لكثير من القلوب الصحيحة، ودفع

المضرة المظنونة واجب عقلًا، وقد شهدت بذلك التجارِب مع النصوص، وضل بسببه اثنتان وسبعون فرقة من ثلاث وسبعين فرقة. وهذه الإشارة بالنصوص إشارة إلى مجموع أشياء كثيرة، منها: النواهي عن البدع، ومنها: النواهي عن المراء مطلقًا، وهو ما يظن أنه لا يفيد، بخلاف المجادلة بالتي هي أحسن. ومنها: النواهي عن المراء في القرآن، ومنها: النواهي عن المراء في القدر خاصة، ومنها: النواهي عن التفكر في ذات الله تعالى، ومنها: الأوامر عند الوسوسة بما ينافي طرائق أهل الكلام. وفي ذلك خمسة عشر حديثًا في الكتب الستة و«مجمع الزوائد»، أشرت إلى بيانها في «العواصم».

ومنها: أحاديث الإسلام والإيمان المتواترة التي تقتضي قواعدُ الكلام منافاتها، إلا مع التأويلات المتعسفة! ويشهد لذلك من كتاب الله تعالى: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [غافر:٥٦]، فهذا مطابق لما ورد في الحديث من الاستعاذة بالله تعالى عند السؤال عن الشبه، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:١١٨]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [الأنعام:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]، ولم يقل: (بعد المتكلمين)! والحمد لله رب العالمين.

وكيف يطمح الجدلي في هداية المعاندين واعترافهم له، وقد حكى الله إصرارهم على المجاحدة بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ

أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر:١٢-١٥]، بل حكى الله سبحانه إصرارهم على الجحد والعناد يوم القيامة بما لا يمكن تأويله، وذلك قولهم لجوارحهم حين جحدوا فأنطقها الله بالشهادة عليهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١]، فمن بلغ هذا الحد في اللجاج كيف يجب في النظر الاشتغال بمناظرته بعد أن جحد الرسل وما جاءت به من أبين الآيات؟ ولعلم الله تعالى بذلك قال لرسوله خاتم النبيين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقحم المبطلين، والحجة الكبرى على المعاندين -صلوات الله عليه وعلى آله وعلى جميع النبيين-: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحج:٦٧، ٦٨]، وقال: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٢٠]، فهذه هي المجادلة بالتي هي أحسن، المأمور بها، وقد حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مجادلة الأنبياء في كتابه لأنواع الجاحدين، فلم يكن فيها شيء يتوقف على معرفة دقائق الكلام والمتكلمين!

وقد بسطت هذا المعنى في «العواصم»، فمن لم تكفه هذه الإشارة فليطالعه هنالك، والله الموفق، وبيده الحول والقوة.

ولما فرغت من هذا القدر في هذا المختصر، بلغني سؤال يتعلق به من بعض المسترشدين، فكملت بالجواب عليه الفائدة بمن الله تعالى، ورأيت إلحاقه به واتصاله لائقًا، وهو هذا...

(بسم الله الرحمن الرحيم)، الحمد لله الذي مَنَّ علينا بالتآلف بين قلوبنا بجامع الإيمان، وأمرنا بالتحاب والتعاون بقدر الإمكان، وخص من عموم ذلك ما ورد من الأمر بالانفراد في آخر الزمان؛ رحمة للمؤمنين وتيسيرًا من الرحمن، ونهانا عن التفرق في

دين الإسلام والابتداع، وألزمنا الاقتداء برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاتباع، خصوصًا مذ قال تنصيصًا وتنبيهًا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فكان في جوامع ما جاء به المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الزواجر: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، وأمره بالإعراض عن الجاهلين، ونزهه سبحانه للمقتدين من تكلف المتنطعين، فقال حاكيًا عنه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، فمن ثم لم يتكلم في الروح، وقد عولت الخصوم عليه تعويلًا، حتى نزل في ذلك: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، وربما ترك الجواب مع وضوح ما سئل عنه مما لا يُحتاج؛ كراهية لما لا يفيد من الجدال واللجاج، كما فعل نبينا مع ابن الزِّبَعْرَى -عليه أفضل الصلاة والسلام وآله الكرام- حين تعرض للقدح في كلام الملك العلام.

هذا، وهو المبعوث رحمة للعالمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمنصوب لبيان مشكلات الدين، والموصوف بالخلق العظيم، والمعلوم أنه على الصراط المستقيم، وتلته الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فأحسنوا في الاقتداء بخاتم الرسل، وأقروا عمر بن الخطاب على مثل صيغة ابن عسل[1]؛ انتهاءً بنهيه، وطاعةً لأمره، وخوفًا من الدخول في وعيد الذين يخالفون عن أمره! وكيف لا يحافظون على ذلك، وقد قال سبحانه تبجيلًا له وتكريمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، فلولا ما استثناه الله سبحانه من المجادلة بالتي هي أحسن -على ما تبين من الآيات والآثار والعرف المستحسن- لتركوا الجلي كما تركوا الخفي؛ عملًا بإطلاق النهي الصادر من اللطيف الخبير. والصلاة والسلام الأتمان

(١) كذا في هذه النسخة، وفي نسخة أخرى: بضبيع بن عسل، وأخرى: بن يصنع عسل. اهـ. مصححه.

الأكملان على صاحب بيعة الرضوان، وعلى آله حماة الإسلام، والهداة إلى الإيمان، ما كر الجديدان واعتقب الملوان.

وبعد، فإنها لما وصلت إلي الأسئلة الخفية عن وجه تتجنى لمناهج أهل الكلام الخفية، صادفت مني قلبًا قد غلق أبواب الدقائق، وترك الاستعداد للقاء فرسان هذه الحقائق، وصم عن الداعي إليها مسمعًا، ولم يتمن ما تمنى ورقة بن نوفل من كونه فيها جذعًا! وكيف وقد رجحت الصوارف عنها، وجاء المثل: «حسن قدح ليس منها»؟ ومن أعظم الصوارف: دنو الأجل، والهم بالاستعداد للقاء الله تعالى عَزَّوَجَلَّ، فإن لكل مقام مقالًا، ولكل حال أعمالًا، وإن كنت لم أفعل جميع ما وقع به الاهتمام، وما أمّلت إيثاره بين يدي الحمام، فالهم القوي كاف في الصرف عن الإقبال، فكيف وقد تشاغلت ببعض ما تعلقت به الآمال، وتعللت على أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين بالوقوف في أبوابه، ومداواة قاسي طباعي بلطيف خطابه، وإيثاري في خاتمة عمري لسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكريم كتابه، ثم لزمت البيت وآثرت الخمول، وتركت لو تركت الفضول، وتمثلت بقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول:

اطلب أبا القاسم الخمول ودع ... غيرك يطلب أساميًا وكنى

شبه ببعض الأموات شخصك لا ... تبرز إن كنت عاقلاً فطنا

علك تطفئ ما أنت موقده ... إذ أنت في الجهد تخلع الرسنا

ادفنه في البيت قبل ميتته ... واجعل له من خموله كفنا

وعملت على كلام السيد العلامة الإمام المؤيد بالله في استحباب ترك ما لا أحتاجه من الخوض في علم الكلام، وترك احتجاجي بما لا ينازع فيه عاقل، ولا يخالف فيه إلا جاهل أو متجاهل، من إيثار الضروريات اليومية على الحاجات الأملية؛ فإن الضرورية

بلا قيد أقدم من الحاجية. كيف إذا تعينت الضرورية وتضيقت، وتأخرت الحاجية وتوسعت؟ وعلى ذلك درجَ السلف الصالح ومن اقتدى بهم من المناظرين في ترجيح متعارضات المصالح.

ومن الصوارف عن ذلك: شدة المحبة لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وعلى ذلك من الأثر ما لا ينكره منصف، ولا يجحده إلا متعسف، ولا شك أن كل مسلم يحب كلام الله تعالى، ويعظم كلام رسوله ﷺ، ولكن المحبة والتعظيم مراتب متفاوتة، ومقامات متباينة، ولا ريب أن بعض الفنون أحب إلى بعض الناس من بعض، بل بعض كتب الفن الواحد أحب إلى بعض أهله؛ لما فيه من الخواص.

وإذا علمت بأنه متفاضل ... فاشغل فؤادك بالذي هو أفضلُ

وقد وضعت كتابًا في تفضيل الإقبال على هذين العمودين، والاستضاءة بأنوار هذين النيرين، وذلك من دلائل شغفي بهما، وذمي لمن استقصر قدر معارفهما، وبغي سبيلهما عوجًا، ينفر عنه قاصديهما، ومن ولع بشيء ولع بتمهيد الوسائل إليه، وقطع شبه الصادقين من التعويل عليه، ولم يكد ينتفع بسواه، ولا يهتدي إلا بهداه، وهذا معروف في طبائع المخلوقين، كما قال بعض المحبين:

ولو داواك كل طبيب داءٍ ... بغير كلام ليلى ما شفاكا

فإذا تقرر هذا في غير حب الله سبحانه، فالذين آمنوا أشد حبًّا لله، وسيأتي كلام الهادي في الحث على ذلك، والتفضيل لهذا المسلك على سائر المسالك؛ وخشيت أن أقطع العمر في الوسائل وما وصلت إلى المتوسل إليه، وتعوقني العوائق -والعياذ بالله- عما لا يعول إلا عليه، فأكون كمن بالغ في الوضوء وابتدع حتى خرج وقت الصلاة وضاق عليه ما اتسع!

وقد رأيت الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ خص هذين العلمين الشريفين بالتوسل بهما إلى الله سبحانه في رقائق أشعاره، ولم يذكر في توسله غير الكشاف و الفائق من مجلس علومه وآثاره، فأحببت أن أختم عمري من طيبهما بما هو أحسن من ختام المسك، وأستحضر من مقدماتهما ما ينتج الرفق والنسك، وقرعت في أوقات الرقة أبواب المنح، ومن دق باب كريم عليه فتح، ولا ينبغي أن يُضرب عما عنّ ويجتنب، ففي الحديث: «يستجاب للعبد ما لم يقل: قد دعوتُ ودعوتُ فلم أُجَب»، ولا يرد على هذا مناقضته بسوء ما أنا عليه من الحالة بالنظر إلى الأخبار؛ فذلك هو الموجب للاهتمام بأقرب الطرق إلى النجاة من النار، والتشبه بما كان عليه الأبرار من العزلة والفرار، والاشتغال بالقرآن والآثار، والأذكار، والاستغفار، بلسان الانكسار والاضطرار.

وهم الأساة فناد في عرصاتهم أضحى ببابكم العليلُ فمرِّضوا

ومن الصوارف عن ذلك، الموعرة لسلوك هذه المسالك: عدم وجدان الصديق الصدوق، البري من الجفاء والعقوق، القائم بما للأخوة من اللوازم والحقوق، ميمون الخلائق، مأمون البوائق، ربّانيّ الهمة رهبانيّها، بُرهانيّ المَعارف قُرآنيّها،

صَموتٌ إذا ما الصمت زيّن أهله وفتّاق أكمام الحديث المحكّمِ

وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ونِيطت له الآياتُ باللحم والدمِ

وما تركت الطلب حتى طال ارتيادي له بالجد والجهد، فكنت كلما وجهت أملي إلى وجهة لم ألق إلا بني سعد؛ لعدم الحظ لا لعدم المطلوب، فكم في الباب من علم منصوب، ووجيه محبوب، وصادق مجذوب، حتى عاد البصر خاسئًا حسيرًا، كأنما سمته أن يريني في خلق الرحمن تفاوتًا وفطورًا، ولامني في الطمع كل عارف نصيح، وأنشدوني في ذلك كل قول فصيح ومعنًى صحيح، فمن ذلك: قول الزمخشري:

تيممت أسأل من عنّ لي ... من الناس: هل من صدوق صديق

فقالوا: عزيزان لا يوجدا ... ن: صديق صدوق وبيض الأنوق

وقول الآخر:

صادُ الصديق وكاف الكيمياء معًا ... لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

وكم سعى لهما قوم وكم جهدوا ... فما أظنهما كانا ولا اجتمعا

وقول الآخر:

من لك بالمهذب الندب الذي ... لا يجد العيبُ إليه مختطى؟

وقول الآخر:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه ... على شعث! أي الرجال المهذب؟

وقول الآخر وهو الذي أطرب (الرشيدَ):

غديري من الإنسان لا إن جفوته ... صفا لي، ولا إن صرت طوع يديهِ

وإني لمحتاج إلى ظل صاحب ... يرقّ ويصفو إن كدرت عليهِ

وأحسنُ منه:

ومن عدم الإنصاف أنك تبتغي الـ ... ـمهذب في الدين ولست المهذبا!

وما زلت في زمن الحداثة وأيام الغزارة أَسُد سمعي عن كل نصيحة، وأرد بطبعي في هذا كل حجة صحيحة، و«حبك الشيء يعمي ويصم»، ولا ينجو من الهوى إلا من عُصم، حتى أسفر لي وجه الخبرة عن أحوال الرجال، فنادى مؤذن التجارب: الصلاة في الرحال، وأمر الفصحاء برفع الأصوات بالنذارة من كل منارة، فتارة وعيت: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات:٥٤]، ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [مريم:١٦]، ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ

رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦]، وتارة أسمع: «يوشك أن يكون خير مال الرجل المسلم: غنم، يتتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن! ائتمروا بينكم بالمعروف، وتناهَوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مؤثَرة، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة، واعتزل تلك الفرق كلها، ولو أنك تعض على جذر شجرة، حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك، والزم بيتك، وخذ ما تعرف، واترك ما تنكر. لِيسعْك بيتُك، وابك على خطيئتك»، وتارة أتأمل قول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ووالله، لولا رجائي الشهادة عند لقاء عدوي -لوْ قدْ حمّ لي لقاؤه- لَشخصت عنكم، ثم لا أسأل عنكم ما اختلف جنوب وشمال!»، وشاع هذا المعنى وذاع، حتى نظمه البلغاء على أساليب تهتز لها الطباع، وتلتذ بها الأسماع، مثل: قول بعضهم:

كيف التخلص والبسيطة لجةٌ ... والجوُّ أسحم بالمصائب متجمُ
أسرج وألجم في الفرار فكلهم ... فيما يسوؤك مسرج أو ملجمُ

وقوله:

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر ... أقاريك الأداني واحذرنّي
صديقي ما هويت لك اقترابًا ... وصنتك عن مخالطتي فصني

وقوله -وأجاد فيه-:

وما عفت وردي لارتواءٍ وجدته ... بنفسي، ولكنّ المياه أجونُ
فلا تشغلنّي بالحديث وخلّني ... وأشجانَ قلبي فالحديث شُجونُ

فعقدت على ذلك اعتقادي، وعزمت على لزومه بعد أن همت في كل وادي[1]،

---

(١) أثبتت ياء المنقوص للسجع.

وقنعت من الغنيمة بالإياب، حتى سلمت في سفري من الذئاب المدلسة بلبس الثياب، وإنها والله -بدليلَي العقل والحس- أخبث نوعي هذا الجنس، لا سيما من كان ظاهره بالزهادة متحليًا، وباطنه من حلية الإخلاص متخليًا. وقد أبدع الزمخشري وأجاد، في قوله في هذا الجنس من العلماء والزهاد:

إني على ما أراكم لا أحذركم معرة اللص[1] والأكراد والفسقة

(١) وفي «القاموس»: أمعره: سلبه ماله. اهـ. مصححه.

الآيات الدالة على وحدة الصانع جَلَّ وَعَلَا

ومن أهم المعقولات: من يدخل في الأرواح الأجسام اللطيفة، يقسمها إلى: سفلية، وعلوية، والسفلية: إما خيرة، وهم صالحو الجن، وإما شريرة خبيثة، وهم مردة الجن والشياطين، وإما علوية، وهم الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقد دخلت جهنم ودركاتها في عنصر النار -نعوذ بالله منها- كما دخلت البحار وعجائبها، والأمطار وسحائبها في الماء، قالوا: فهذه إشارة جملية إلى تقسيم موجودات العالم، ولو أن الإنسان يكتب ألف ألف مجلد في شرحها لما وصل إلى مرتبة من مراتبها، وهذا العالم كله جواهره وأعراضه، وعلويه وسفليه مشتمل على الحكمة والإحكام والتدبير والإتقان، محدث بمادته وصورته، يدل كل شيء منه على انفراده على خالقه سبحانه، كما قال القائل:

وفي كل شيء له آية … تدل على أنه واحد

وعلى ذلك دلت العقول والآيات، أما الآيات فقد ذكر صاحب «الوظائف على مذهب السلف» أن في القرآن قدر خمسمائة آية في كتاب الله تعالى، ولْنذكر شيئًا يسيرًا من الآيات المنبهة على الأدلة على الله تعالى، مما نطق به القرآن، وعضده البرهان؛ ليظهر للسائل -أيده الله- أنه يوجد طريق غير طريق الأكوان.

الآية الأولى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٠، ١١].

الثانية: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [النحل:١٢].

الثالثة: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٣].

الرابعة: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

الخامسة: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل:٦٠].

السادسة: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل:٦١].

السابعة: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

الثامنة: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل:٦٣].

التاسعة: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل:٦٤].

العاشرة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم:٢٠].

الحادية عشرة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١].

الثانية عشرة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢].

الثالثة عشرة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم:٢٣].

الرابعة عشرة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:٢٤].

الخامسة عشرة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم:٢٥].

السادسة عشرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٣، ٢٤].

السابعة عشرة: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦].

الثامنة عشرة: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٧، ٨].

التاسعة عشرة: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق:٩].

العشرون: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق:١٠، ١١].

الحادية والعشرون: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧-٢١].

الثانية والعشرون: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

الثالثة والعشرون: قول نوح لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٣-١٦] الآيات.

الرابعة والعشرون: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٢٠-٢٤].

ومما هو أوضح في هذا: قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات:٤٩، ٥٠].

الحجة الخامسة والعشرون: ما ذكره الله تعالى في أول سورة النبأ، وما أعظم الحجة بقوله سبحانه فيها: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٢-١٤] لأنها مشاهدة! كما نبه عليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، ولا شك أنها وسائر العالم العلوي والسفلي[1] في الهواء، بإجماع العقلاء وإقرار الجاحدين، وفيه غاية الثقل، وطبع الثقيل: الهوي إلى الأسفل، لولا أمسكه الله عَزَّوَجَلَّ... إلى أمثال ذلك مما يطول ذكره.

---

(١) كلمة (السفلي) ثابتة في ثلاث نسخ خطية، ولعلها زائدة، أو (العالم السفلي)، وهو الأرض وما عليها من الهواء، كـ(العلوي)، ولولا إمساك الله لها لهوت. اهـ. مصححه عيد.

إجماع الملل على وضوح الطريق لمعرفة الله تعالى

واعلم أن معرفة الله تعالى أجلى وأظهر من (دليل الأكوان)، والقطع بتوقفها عليه يستلزم القطع بأنها أخفى منه؛ لأن الدليل أجلى من المدلول عليه، ولذلك كان له معرفًا. وقد حكى الله في كتابه العزيز عن رسله الكرام الذين هم خيرته من الأنام ما يدل على ذلك، حيث قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]، وقد أجمع أهل الملل الدينية، وأهل الفرق الإسلامية، على وضوح الطريق إلى معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واشتد اختلافهم في الأكوان، وعلمت دقته بالضرورة عند من حققه، فكيف يكون ما اشتد اختلافهم فيه وعلمت دقته وغموضه- كاشفًا وموضحًا ومجليًا لما أجمعوا على وضوحه وسهولته؟ وقد نص ابن متويه على كثرة الشبه في (دليل الأكوان).

وقد استحسن علماء النظر قول بعض الأعراب، وقد سئل: بم عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وآثار الخطى تدل على المسير، فهيكل علوي، وجوهر سفلي، لم لا يدلان على العليم الخبير؟! وإلى هذا أشارت الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فيما حكى الله تعالى في قوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]، فقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى استنكار الشك فيمن هذا صنعه وأثره، والأثر الحقير يدل على صاحبه، فكيف لا يدل هذا الأمر العظيم -بما اشتمل عليه من الآيات والأعاجيب- على صانعه؟ وبأي شيء أعظم منه يناظر من أنكره؟ ولقد قالت طائفة منهم جليلة من شيوخ النظر والاعتزال بأن المعارف ضرورية، غنية عن القيلِ والقالِ، ولو ذهب إليه ذاهب لكان قويًا مع طرح النظر؛ لكن مع القول بأن النظر شرط اعتباري -كما هو قول محققيهم- فحقيقة النظر على هذا القول: تجريد القلب عن

الغفلات، كما قال (مختار)، وقد أشار إليه الجويني في «برهانه»، والمقويات لهذا القول كثيرة من الآيات والآثار، وأحوال السلف الأبرار، فلقد كانوا أشد الناس يقينًا مع عدم خوضهم في ترتيب الأدلة، وشروط الإنتاج، وتقسيم الأشكال، وتحرير الجواب والإشكال، ولو لم يرد في ذلك إلا قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم:٣٠]، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل مولود يولد على الفطرة**» الحديث متفق على صحته، وإليه أشار علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «فبعث فيهم رسله؛ ليستادوهم ميثاق فطرته»، كما شرحه ابن أبي الحديد في أول خطبة في «النهج» في قوله: «الذي شهدت له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود، ومن ذلك: قول الرسل عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، وقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١، ٢]، وفي الحرز: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [السجدة:٢]، فإن قيل: إذا أثمر قليل النظر فكثيره أولى، قلنا: هذا صحيح إذا كان المنظور فيه هو ما نظر فيه السلف من عجائب المخلوقات، أما إذا نظر فيما نظر فيه غيرهم مما لا طريق إلى معرفة كيفيته، وهو النظر في الله، وخفيات صفاته، ودقق ذلك- خيف عليه، وقد قيل: «من نظر في الخالق ألحد، ومن نظر في المخلوق وحد».

وروي النهي عن هذا، واشتهر التحذير عنه. ولما نظر الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في كيفية فعل واحد من أفعال الله، وهو كيف يحيي الموتى، ولم يهتد إليه بعقله، وهو من أفضل العقول وأكملها، حتى سأل الله أن يريه ذلك ليطمئن قلبه؛ فكيف بمن نظر في كيفية القديم وإحكامه، وهو لا يألف إلا الحدوث؟ وبهذا تعرف أن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يطلب طمأنينة قلبه بوجود ربه، بل بمعرفة كيفية خفية من كيفيات أفعاله؛ ألا تراه رجع إلى ربه، وسأله تعريف تلك الكيفية لكمال يقينه بوجود ذاته، ومعرفة أنه الذي يهب المعارف، وكلمه ربه،

وراجعه، وأجابه؟ وربما كان ذلك في أول أحوال تكليفه، كقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]، وما أشبهَ قولَ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] بقول زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران:٤٠]، وقول مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠]؛ فإن كلهم سأل من الله زيادة من العلم، وهي موهبة من مواهبه، وكذلك سألت الملائكة ذلك، في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠].

ومن أصعب ما يرد على المتكلمين من أدلة القائلين بأن المعارف ضرورية أو ظنية، وأنها حاصلة عقب النظر لأنه شرط اعتباري- أمران:

أحدهما: أن الفرق عند المتكلمين بين الضروري والاستدلالي: حصول التجويز منا أن ترد شبهة تقدح في الاستدلال، وهذا التجويز وإن كانت صورته في الظاهر خاصة بالاستقبال، إلا أنه يلزم من كل نوع خاص حصول جنسه العام، ويستحيل وجود النوع الخاص مع امتناع جنسه العام؛ إذ لو استحال وجود جنس الحيوان لَاستحال وجود نوع الإنسان، وكذلك لو استحال في مسألتنا وجود جنس الشك في الاستدلالي لَاستحال وجود نوع الشك المستقبل، وهذه طريقة للمتكلمين في الاستدلال، وفيها عندي نظر ليس هذا موضع تحقيقه.

وأوضح من ذلك: أن تجويز ورود الشبهة لا يختص بوقت معين في البعد والقرب؛ فلذلك يجوز في كل وقت، مستقبل وحاضر، ودخل في ذلك حال العلم وما بعده، وذلك مستلزم تجويزه في الحال، وإنما اختص الاستقبال بمعرفة الوارد من الشبه بعينه وتأثيره ومعرفة أثره؛ لأن كل واحد منهما ينقسم: أما الوارد: فقد يكون من البراهين، وهي: اقترانية، واستثنائية، وكل منهما ينقسم، وقد يكون من الاعتراضات، فهي نوعان:

معارضة، وقدح، وينقسمان إلى نيف وعشرين. وأما أثره فقد يكون: شكًّا، وقطعًا، والقطع: إما بالبطلان فقط، وإما بصحة نقيض أو مخالف معه. وبالجملة، فتجويز بطلان العلم وانعكاس لاعتقاد شك بآخر ينافي اليقين الجازم، وينافي البيان بكل حال عند التشكيك. والعلم الحق: ما جمع ثلاثة أشياء: الجزم، والمطابقة، والثبات عند التشكيك، وببطلان واحد منها يبطل العلم؛ فتأمل ذلك وجوّد فيه النظر.

فإن قيل: إنما أرادوا أنه يجوز نسيان بعض مقدمات الدليل إذا كثرت، وأما مع استحضارها فلا يجوز- قلنا: هذا غير صحيح؛ لعدم النقل، ولاختلال المعنى: أما عدم النقل فواضح، وعلى الناقل البيان، **وأما اختلال المعنى فمن وجهين:**

أحدهما: أن النسيان ضروري، وهذا القدر مجوز في العلوم كلها -ضروريها ونظريها-، وتجويز النسيان كتجويز زوال العقل، أو استغراق الفكر بحادث ضروري، كالمشغول بمفاجأة سبُع قتال، أو عدو صوال، فإنّ اشتغاله بالنظر في نجاة نفسه في الحال يمنعه بالضرورة من تذكر العلوم الضرورية، بل قد يشغله ذلك عن إدراك كثير من المدركات الحاضرة البينة.

وثانيهما: أن المتكلمين إنما ذكروا ذلك لأنه موجود مع أهل العلوم النظرية بالضرورة؛ فإن هذا التجويز ضروري، ومستنده التجرِبة المستمرة في ذلك، ومعنى هذا الشك أن الناظر يجوز ورود شبهة قادحة في أحد أركان دليله المستحضرة، ولو لم يجوز ذلك العلم الانتفاء، ولو علم الانتفاء لكان علمه ضروريًّا أو نظريًّا، وكلاهما ممتنع: أما الضروري فبالاتفاق، وأما النظري فلعدم وجود دليل على ذلك، إلا عدم الوجدان، وهو لا يفيد القطع بالوفاق والتجربة، وكم من طالب أمر لا يجده في وقته ثم يجده بعد مدة، خصوصًا في الأنظار والمعارضات؛ ولذلك كثر رجوع العلماء وتعارضهم في ذلك؛

فدل هذا على أن أدلة المتكلمين المتنازع فيها بين عقلاء علماء الإسلام بعد تَكرار النظر وقصد الإنصاف- لا تفيد العلم اليقيني، إلا ما انتهى منها إلى الضرورة بحيث يقطع العالم به على استحالة شكه فيه ما دام حاضر الذهن صحيح العقل، وهذا يرفع كثيرًا من علم الكلام.

وثانيهما: أنا وجدناهم لا يزالون يخوضون في النظر في الدليل على الأمر الجلي، حتى ينتهوا إلى دعاوى محضة في أمور دقيقة خفية، هي أخفى مما جعلوا الخوض فيها وسيلة إلى معرفته، وإنما جعل الدليل معرفًا للمدلول، فلا يصح أن يكون أخفى منه، ألا ترى أن البهاشمة تقول: إنا بعد العلم بحدوث العالم نحتاج إلى البحث عن دليل يدل على أن له محدثًا؟ مع أن العلم بحاجة الحادث إلى المحدث ضروري عند أبي الحسين وكثير من الشيوخ، وهو الأمر المتعارف بين العقلاء، حتى إن الصبيان والبهائم تدرك ذلك، ومتى طلبت دليلًا على ذلك لم تجده قطُّ إلا تكثيرًا أو تطويلًا في العبارة. وحاصله يرجع إلى دعوى الضرورة في مثل هذا، بل لا يجب عندهم الوصول إلى سكون النفس فقط، ثم إذا ثبت أن لهذا العالم صانعًا احتجنا -عندهم- إلى دليل آخر يستدل به على أنه موجود ليس بمعدوم؛ وهذا أعجب من الأول؛ فالاعتقاد الجازم باستحالة عدم الصانع المحكم، ووجوب وجوده، ضروري، وهو أجلى من الدليل المستنبط عليه، وإذا أمكنت المنازعة في هذا أمكن النزاع في دليله!

الكلام أن المجاز غير محمود

قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة:٤، ٥]، فيا لها من حجة نافعة لمن أنصف، قاطعة لمن تعسف! لوجوهٍ:

الوجه الأول: أنه الظاهر، ولا يجوز العدول عن الظاهر إلا بدليل مانع منه، بإجماع المسلمين، ولو جاز العدول إلى المجاز بمجرد الاستحسان مع جواز الحقيقة لصح مذهب الباطنية أو أمثالهم، ولم يوثق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخبرٍ ألبتةَ، والعجب من الزمخشري أنه اختار أن التحديث منها والإيحاء إليها مجاز، ثم روى عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يناقض قوله، ولم يقدح في صحة الحديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وروى أن مقتضاه قول لغيره وإخبار غيره اختياره من غير رد عليهم، فما أعجب ما صنع! فإن كانت الحقيقة عنده جائزة غير مستحيلة، فما يسوغ له صرف كلام الله عَزَّوَجَلَّ عن حقائقه، ولا يحل له تقديم رأيه على صوادع القرآن ونواطقه. وإن كان الظاهر عنده من المحالات بالأدلة العقلية القاطعة، فما يحل له أن ينسب إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قول المحال الذي نزه عنه نفسَه، ثم لا يزيفه؛ لأن القول بوجود ذلك عنده كذب وزور بالأدلة القطعية، وجدير ألا تسود له تفاسير الكتب الربانية! وهذه طريقة الزمخشري في كثير من تفاسيره، وله بالمجاز ولع كثير، حتى إنه ذكر أن خلق الله عَزَّوَجَلَّ للخلق مجاز، وأن الحقيقة إنما هي في خلق أحدنا الأديم، ونحوه، ذكره في «أساس البلاغة»، وهذا يقتضي أن تسمية الله تعالى بالخالق مجاز، يجوز نفيه عنه بغير قرينة، ويكون الحق وصف الله بأنه غير خالق على التحقيق، وإنما الخالق الحق من لا أحب ذكره هنا من صناع الجلود، وهو الذي يوصف بذلك حقيقة! فاعرض هذا على قول الله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣]، وعلى ما يسبق إلى

أفهام أهل اللغة عند الإطلاق الذي هو أخص أوصاف الحقائق، ومنتهى الأمر أن يكون ما ذكره هو الأصل في الحقيقة اللغوية، فقد صار (الخالق) يطلق على الله تعالى في الحقيقة العرفية، بل في الحقيقة الشرعية، وهي أقدم الحقائق، وكلتاهما مقدم على الحقيقة اللغوية، كما هو مقرر في علم أصول الفقه، و(الخالق) من الأسماء الحسنى، وحيث يراد به إيجاد الأجسام ونحوها وإخراجها من العدم المحض يكون مختصًّا بالرب سبحانه، وعليه قول الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، وحيث يراد به تصويرها وتركيبها وإحكامها وتقديرها يكون سبحانه أحسن الخالقين، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والإحكام وحسن التقدير والتصوير من آثار العلم، باتفاق العلماء؛ ولذلك كان دليلًا على علم الله سبحانه، وعلم العباد في علمه، كما قال الخضر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ما علمي وعلمك وعلم جميع العالمين في علم الله إلا مثل ما أخذ هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر**»، فالله المستعان!

الوجه الثاني: أن قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥] مانع من ذلك، وقد أقر بما يقتضي ذلك في «كشافه»، فقال: إن (الباء) متعلقة بـ(تُحدِّث)، معناها: إخبارها بسبب إيحاء ربك لها، وأمْره إياها بالتحديث. هذا لفظه، ثم زعم أن الوحي مجاز؛ محتجًّا بقول الشاعر:

أوحى لها القرار فاستقرتِ وشدها بالراسيات الثبَّتِ

ونسي ما تقرر في العلم الذي هو صَنْعَتُه مِن وجوب تقرر القرينة عند مَن خُوطب حتى لا يكون المتكلم ملغزًا ولا ماجنًا ولا لاعبًا عابثًا -تعالى الله عن ذلك-. ولا حجة له في البيت؛ لأن الشاعر إن كان مسْلمًا يجوز أنه قد سمع قوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ

شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، ونحو ذلك، وجاز أن يريد الحقيقة؛ لأن في فرَق المسلمين من يقول بذلك، وفي فطر الأكثرين ممن لم يتلقن الكلام، وإن كان كافرًا من كفرة العرب، جاز أن يقول ذلك مستندًا إلى ما سمعته من بعض أهل الكتب الأولى. ومن البعيد أن يكون هذا الشاعر معتزليًّا من علماء الكلام، أو فلسفيًّا من متخذي لغة اليونان، ولو سلمنا أنه ما أراد الحقيقة، فبقرينة ظنية غير سالمة من المعارضة، ولو سلمنا القطع بأنه متجوز هنا لم يلزم القطع في الآية بمثله؛ فإن كلام رب العزة جَلَّجَلَالُهُ، الذي يعلم ما لا يعلمه أحد، ويقدر على ما لا يقدر عليه أحد- يحمل على الحقيقة في الأمور الممكنات في قدرة الرب -جل وعز-، ولا يصح كلام الباطنية في أن القيامة مجاز، وحياة أهل الجنة والنار كذلك، بل كلام رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كذلك! ألا ترى أنّا متى سمعنا قوله عَلَيْهِالسَّلَامُ: «**إن هذا الجمل شكا إلي**» حملناه على ظاهره -كما مضى- بخلاف قول الشاعر. على أن كون الإشارة إلى البهيمة يسمى (وحيًا) من قبيل المجاز- دعوى منه، والظاهر أن (الوحي) لفظة مشتركة بين معان على الحقيقة؛ حيث هي الأصل، ولا يثبت المجاز إلا بدليل؛ فبطل ما عول عليه من الحجة، يوضحه أن (الوحي) الذي في قول الشاعر هو إلى حيوان له إلهام إلى الإشارات، و(الوحي) إلى الأرض ليس من هذا، ولا يصح فيها مثل هذا عنده؛ فكيف يحتج على الشيء بما لا يلائمه ولا يقاربه إلى هنا؟

الوجه الثالث: أن دار الآخرة محل وقوع الخوارق، وتقلب العوائد، وفيها تتكلم الأيدي والأرجل والجلود، والمقصود بما تقع به الأخبار من أحوالها في كتاب الله تعالى المنبه على العباد بتعريف ما لا يعرفونه، وتحقيق ما يوعدونه، وحمل ذلك على المجاز عكس لهذه الحكمة الربانية، والدلالة على رب العزة جَلَّجَلَالُهُ في آياته الفرقانية، وتشكيك على المؤمنين في قبول ظواهر الأخبار القرآنية من غير دلالة قطعية، وهذا خطر جليل، وخبط

كثير غير قليل! وإذا كان القصد بتفسير كتاب الله والنظر في مراد الله هو التقرب إلى الله، فما لنا والتعرض لمثل هذه الأخطار، والتقديم لبادئ الرأي على ظاهر خبر الله الذي هو أصدق الأخبار؟ ولما رأيت ما وهب الله تعالى لمولانا أمير المؤمنين من قوة الإيمان واليقين والثبوت على مناهج السلف السابقين، أثار مني كامنًا، وحرك ساكنًا، فأحببت أن أتلو -بعده هذه الحجة القاطعة، والآية الساطعة- ما حضرني مما يقوي معناها؛ فمن ذلك: قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ مانع واضح من تأويل الزمخشري لتسبيح السماوات والأرض بالمجاز؛ لأن تسبيحهم حقيقي، وتسبيحهن مجازي، وقد اعترف أن الكلمة الواحدة لا تكون حقيقة ومجازًا في حال واحد، وقد التزم بهذا أن تسبيح المكلفين مجاز، وهذا أولى من عكسه ولا يعجز خصمه عن مثل دعواه، وقد دل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، لكنه قد تمحل وتكلف تأويل ذلك بما لو صح له مثله لم يعجِز أحد من الملاحدة عن تأويل نصوص القرآن على المفاد بمثل ذلك! ومن العجب ارتكاب مثل هذا في كلام الله، وتجويزه من غير ضرورة؛ فإن ذلك متى صح لم يؤد إلى تشبيه ولا جبر ولا نقص على الله تعالى ولا تكذيب له، ومع ما في تجويز ذلك من المفسدة الكبرى، وهي تصحيح دعاوى التأويلات الباطلة والنادرة، وهذا يوهن كون القرآن حجة نيرة وحكمًا عادلًا بين المختلفين إلى يوم القيامة؛ لأنه لا يكون كذلك بلفظه، بل بمعناه؛ فيجب أن يكون معناه مصونًا عن قبول مثل هذه الدعاوى فيه، وإلا بطلت الحجة فيه، وادعى كل

ما شاء في معانيه، والله المستعان! وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبا:١٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:٩-١١]، ففي هذه الآية الشريفة الرد على الجبرية؛ لنصها على الفرق بين الطوع والكره، كما هو معلوم من ضرورتي العقل والشرع، وفيه الرد على من تأول قولهما: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ بنفوذ مراد الله فيهما؛ لوجهين:

أحدهما: أن الآية مستلزمة لصحة إتيانهما على وجهين مختلفين: أحدهما يسمى طوعًا، والآخر يسمى كرهًا، وذلك لا يصح إلا إذا كان الإتيان فِعليهما حقيقة، أما إذا كان فعل الله حقيقة لم يتصور منه ذلك الانقسام، بل يفعله تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ولو صح ذلك الانقسام فيه كان ذلك جوابًا للجبرية.

وثانيهما: أنه لو كان كذلك لم يختص بالوقت الذي عينه في الآية، فإنه عطف الاستواء بـ «ثم» التي تقتضي الترتيب والمهلة، والقول لهما بـ «الفاء» التي تقتضي الترتيب بغير مهلة؛ وهذا يدل على أنه قال ذلك بعد خلق جزء من الأرض، وبعد دحوها، لا كما قال الزمخشري، أنه قبل دحوها، والدليل على ذلك: أنه نص على أن ذلك بعد خلق الجبال فيها، وذلك لا يتصور إلا بعد الدحو، وهو مقتضى الحكمة في خلق الجنة، كما جاء في غير هذه الآية؛ وعلى هذا فقد كان قول الأرض بعد تمام مراد الله في خلقها، فلم خصه بذلك الوقت؟ وهو قبله، أولًا: على تأويلهم، ثم لفظ (الإتيان) لا يناسب تأويلهم،

وأوله الزمخشري بالإتيان الذي يحتاج إلى مبتدأ مرفوع وخبر منصوب، مثل: صرنا طائعين، فلم يطابق، خصوصًا على اختياره في العربية أنّ (جاء) ونحوه لا يكون فعلًا ناقصًا بمعنى (صار) في نحو قولهم: جاء البُرُّ قفيزينِ، وقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد:٣١]، وقوله: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن:٦]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج:١٨]، وقوله في هذه الآية: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ دليل الحقيقة؛ لأنا لو حملنا سجود الجمادات على المجاز الذي هو نفوذ مراد الله من فعله فيها من غير اختيارها، لَدخل الكفار في ذلك، فإن مراد الله تعالى من فعله فيهم نافذ، من إمراضهم وموتهم وأمثال ذلك، ويؤيده قوله تعالى في (النحل): ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [الأعراف:٥٤]، ولو لم يكن لها في التسخير فعل تكون به مطيعة لله تعالى لم يقل: ﴿ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾، كما لا نقول ذلك في مخلوقاته المحضة؛ فتأمل ذلك، والله أعلم.

مع أن تسمية المقهور (ساجدًا) على الإطلاق غير معروفة في لسان العرب، ولا واضح القرينة، وقد اشترط علماء هذا اللسان وضوح القرينة؛ ولذلك منعوا تسمية أبخر الفم (أسدًا) لأجل اشتراكهما في (البخر)، وليس في لغة العرب أن يقول: «سجدت لي الأرض» إذا كان متمكنًا من عمارتها وخرابها وزرعها ونحو ذلك، ولو كان كذلك لصدقَ سجود كثير مما ذكر الله تعالى للمخلوقين؛ لتمكنهم منها، مثل الشجر والدواب، فإن قيل: هذا من المعاني المتشابهة، وأنتم قد منعتم الكلام فيها، وهذا تناقض- فالجواب أن الأمر ليس كذلك لوجهين:

الوجه الأول: أنا إنما منعنا من تأويلها والخوض فيها بغير برهان من الإيمان بها والتصديق لظاهرها حيث لا قبح فيه، ولا إضافة صفة نقص إلى الله تعالى.

الوجه الثاني: أن التأويل له معنيان: أحدهما: معرفة المعنى، وهذا مما لا نمنعه حيث تحصل عليه دلالة تفيد العلم أو الظن، بل يجب التفسير به فيما يحتاج إلى معرفته، كـ «القرء» لأجل معرفة مقدار العدة، وإن كان «القرء» متشابهًا؛ لاشتراكه بين الطهر والحيض، وأمثال ذلك، وفي هذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعاء لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»، وقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيته لابنه الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وإني أبتدؤك بتعليم كتاب الله تعالى وتأويله، وشرائع الإسلام، وأحكامه، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره»، والدليل على ما ذكرته من أن هذا التأويل -الذي كان أجمع عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعلمه لولده الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ- غير تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى- أمور، منها: جميع ما تقدم من كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيره، ومنها: قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ عقيب هذا الكلام في هذه الوصية: «ثم أشفقت أن يلتبس عليك مما اختلف الناس فيه من أهوائهم مثل ما التبس عليهم» إلى آخر كلامه، وهو يدل على أن الذي عرفه على بدايته به من تعليم الكتاب وتأويله هو الفروع دون الأصول.

وثانيهما: التأويل بمعنى معرفة وجه الحكمة في دقائق التحسين والتقبيح، وماهية الأمر وحقائقه في دقائق الجائزات والمحالات، وما يمتنع على العقول تصوره من المجازات، وهذا هو الذي لا يعلمه إلا الله، دون الأول؛ فالتأويل بهذا الوجه لا يعلمه إلا الله، وإن علمنا معنى اللفظ، والدليل على ذلك: نص القرآن في قصة الخضر وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهو قول الخضر لموسى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]، ثم إنه بين له وجه الحكمة، ولم يكن تأويله بما يدل على أن قتل الغلام كان

مجازًا، أو خرق السفينة وقع استعارة؛ فكذلك هذا، فإنا نؤمن بأن كلام الجمادات مع الله تعالى صحيح، كما قال الله تعالى، وكذلك سجودها وإخبارها، وسائر ما حكى الله عنها، ولا ندري بكيفية ذلك التي هي تأويله بهذا المعنى؛ فثبت أنه لا يعلم تأويل المتشابه في العقول إلا الله تعالى، وإن علمنا الله سبحانه -بخبره لنا- وجود المتشابهات، وقدرته عليها، وآمنا بذلك في الجملة، لم نكن قد شاركناه سبحانه فيما اختص به من علم تأويلها وتفاصيل وجوه الحكمة والكيفية فيها.

ومما يدل على ذلك: إقرارهم بوصف الله تعالى بكونه حيًّا حقيقةً من غير بنية مخصوصة.

فصـل

في الإشارة إلى ما يعرف به المجاز من الحقيقة

اعلم أن اللغات بأسرها ما وضعت إلا لبيان المقاصد وإيضاحها، وأن المجاز لو صح على الإطلاق من غير شرط ولا دليل عليه لَبطلت الفوائد المأخوذة من الكتاب والسنة، بل لبطل فهم بعضنا من بعض، وإذا أردت أن تعلم أن الأمر في ذلك غير ملتبس -لولا الأهواء والعصبيات- فانظر إلى أشعار الفصحاء وخطب البلغاء، كيف يبين فيها المجاز من الحقيقة من غير لبس، فكيف يقع اللبس الشديد في كلام المعصوم من التلبيس على المخلوقين، المبعوث رحمة للعالمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل في كلام الله جَلَّ جَلَالُهُ الذي جعله شفاءً لما في الصدور، ونورًا لا يطفأ إذا طفئ كل نور؟ فقد وصفه الله أصدق الواصفين بما يجزي الصادين عنه والمتشككين، من: «الإحكام»، و«الفصل»، و«الفرقان»، و«النور»، و«الهدى»، و«التبيين»، والعقل يدرك هذا لو لم يرد منصوصًا في القرآن المبين؛ فإذا عرفت هذا فاعلم أن شرط الحسن في المجاز: أن يكون معلومًا عند السامعين، غير ملتبس بمقاصد المتخاطبين، ألا ترى أنه لا يلتبس المجاز في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤] ولا الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ [فاطر:١]؟ وكذلك لا تخفى عليك في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩]، وعدم التجوز في قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن:٢٢]، وكذلك لا يخفى التجوز في قوله: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧]، ولا الحقيقة في قوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [الإسراء:١٩]، أو أمثال ذلك مما لا حاجة إلى استقصائه من غير تعلم لعلوم المعاني والبيان،

ولا تقليد لعلماء هذا الشان، بل لبقاء سامع هذه النصوص على الفطرة، وعدم ثبوت الفهم السليم بما يعمي عن البصيرة ويورث الحيرة، فهذا الأصل هو المعتمد عليه الجملي؛ ولذلك يفرق العامة بين قولك: «زيد أسد» وبين قولك من غير قرينة: «إن الأسد على الناس»، ومتى قال القائل: «دخلت على الملك ورأيت البلاد في يده» لم يشك من لم يسمع بـ «علم المعاني» أنه مجاز، ومتى قال: «دخلت على الملك فرأيت كتابًا في يده، أو سيفًا، أو خاتمًا» لم يشك المبرز في «علم المعاني» أنه عنى الحقيقة، بل الباطنية الغلاة الذين يزعمون أن كل الكلام مجاز مضطرون إلى سلوك الجادة التي عليها العامة، وإلا لَما وجدوا إلى فهم كلام أئمتهم ودعاتهم سبيلًا ألبتة، فإذا تطلعت إلى معرفة ما لخصه علماء المعاني في هذا فهو: البناء على الحقيقة، إلا عند وضوح إحدى القرائن، وهي ثلاثة لا رابع لها:

إحداها: العقلية، وهي ما يعلم المتخاطبون استحالة ظاهره من غير كلفة، مثل: قولهم: «أن البلاد في أيدي الملوك، وأن الكلام الحسن الترصيف دررًا منظوم من الملاحة في سلوك، ومنه: تسمية الشجعان بـ الأسود السود، والكرماء بـ«غيث الوفود»، ومنه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، أي: أهلَها.

ثانيها: القرينة العرفية، وهي ما جاز في العقل وامتنع في العرف، مثل: مباشرة الملوك الكبار لبعض الأعمال، تقول: «عمر الخليفة بنى دارًا»، أي: أمر بذلك، ومنه: قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر:٣٦]، أي: مر من يبني.

ثالثها: القرينة اللفظية، كقول الشاعر:

لدى أسد شاكي السلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تقلَّمِ

فقوله: «شاكي السلاح» قرينة لفظية تدل على أن الممدوح رجل شجاع لا سبُع، وذلك كثير، ومنه: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، أي: منورهما؛

بدليل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ لأن إضافة النور إليه تدل على أنه رب النور وخالقه، وأراد بالنور هنا نور العلم والهدى؛ بدليل قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. وقد تكون منفصلة في العموم والخصوص، كقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] في بيان المراد من قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فهذا في بيان المراد من نفي الخلة، وإنه عن غير المتقين، وكذلك قد ورد ما يبين أن نفي الشفاعة غير عام، وذلك قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٨٦، ٨٧]، وغير ذلك.

وقد تكون قرينة التخصيص في كلام رسول الله ﷺ، كما في تخصيص الحائض بتحريم الصلاة، مع عموم الأمر بها في عمومات القرآن والسنة، وتخصيص ما لا تجب فيه الزكاة من الأموال، مع عموم ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة:١٠٣]، وفي الحديث: «**لا يأتي رجل مترف متك على أريكته، يقول: لا أعرف إلا هذا القرآن، فما أحله أحللته وما حرمه حرمته، ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا وإن الله حرم كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير**»، وهذا مخصص ومبين لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٤٥] الآية؛ فينبغي لحامل كتاب الله تعالى أن يستكمل العلم بمعرفة السنة، فإن رسول الله ﷺ هو المبين لما أُجمل من القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، والحمد لله رب العالمين أكمل الحمد وأفضله، كما يحب ربنا ويرضى، وصلى الله على سيدنا

محمد وآله وصحبه وسلم، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، من يومنا هذا إلى يوم الدين.

قال في «الأم»: «انتهى زبر هذا الكتاب ضحى يوم الأحد، شهر شوال، سنة ١١٢٩ من هجرة خير المرسلين، بخط مالكه الفقير إلى الله تعالى، السائل مَن وقف عليه الدعاء بحسن ختامه، علي بن إسماعيل خطية -لطف الله به-».

فصل

نقد المتكلمين: مخالفتهم لمنهج القرآن الكريم

مقارنة بين المنهج الكلامي ومنهج القرآن والسنة

مخالفة مناهج المتكلمين لمنهج القرآن الكريم[1]:

قارن الأستاذ أحمد أمين بين مناهج المتكلمين من جانب، وبين منهج القرآن الكريم والسنة وأقوال الصحابة من جانب آخر، مقررًا أنه يخالف هذا وذاك، شارحًا ذلك بقوله: «فأما مخالفتهم لمنهج القرآن فذلك أن القرآن اعتمد في الدعوة على أساس فطري، فيكاد يكون كل إنسان مفطورًا على الاعتقاد بوجود إله خلق العالم ودبره، ويكاد الناس بفطرتهم يجمعون على ذلك مهما اختلفت أسماء الله عندهم واختلفت صفاته، يستوي في ذلك الممعن في البداوة، والمغرق في الحضارة، وهذا ما يعجب له الباحث الاجتماعي إذ يرى إجماع القبائل -حتى التي لم تتصل بغيرها أي اتصال، التي لا تعرف من العالم إلا رقعتها من الأرض وغطاءها من السماء- على إله خالق، إن اختلفوا فيه فخلاف في الأسماء أو الاختصاص، فالقرآن اعتمد على هذه الفطرة، وخاطب الناس

---

(١) ومما يتصل بدراسة «علم الكلام» يعارض د. محمد يوسف موسى اصطناع الأساليب نفسها مع أصحاب الفرق والمذاهب التي ظهرت في تاريخنا، واندثر أغلبها، ويقترح اتباع طريقة القرآن الكريم والرسول ﷺ في بيان العقائد الإسلامية والتدليل عليها بما يقنع العقل ويرضي الوجدان، مع الإفادة من علم الحديث الذي كشف أسرار الكون وبديع نظامه (٦٩-٧٠ من كتابه «الإسلام وحاجة الإنسانية إليه»، مكتبة الفلاح بالكويت، ط٣، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م). مع العلم بأنه قد صدر أكثر من كتاب يتبع هذا المنهج، نذكر منها: «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، و«الإسلام في عصر العلم» للدكتور محمد أحمد الغمراوي، وموريس بوكاي «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم».

بما يحيي هذه العاطفة وينميها ويقويها، ويصلح ما اعتورها من فساد بالشرك وما إليه، وأدار الدعوة على هذا الأساس، فالله تعالى خلق الإنسان وعني به وأحاطه ببيئته ينتفع بها في تسيير شؤونه من أرض وسماء، وليل ونهار، وماء وهواء، وشمس وقمر، وحيوان ونبات، وهو الذي خلق الإنسان، وخلق هذه الأشياء كلها، وواهب الحياة لما حي منها، وواضع نظامها الذي لا تحيد عنه، وغيره لا يستطيع أن يخلق ولو ذبابًا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣، ٧٤]، ثم غذى هذه العاطفة الفطرية بطلب النظر في كل ما حولنا، فذلك يسلم إلى قوة في دين، وإيمان في يقين: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٢٤-٣١]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١]، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

وسلك في الدعوة إلى التوحيد هذا المسلك، فاستدل على ذلك بالمألوف من تنازع ذي السلطة، وما يؤدي إليه النزاع من فساد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ

وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]، كما استدل على ذلك بوحدة النظام ووحدة الحق، وخضوع المخلوقات جميعًا لنظام واحد: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٤٤]، وهكذا سار أسلوب القرآن على هذا المنهج في إثبات قدرته وعلمه، وهذا الأسلوب -كما ذكرنا- يساير الفطرة ويغذيها، ويشعر كل إنسان في أعماق نفسه بالاستجابة له والإصغاء إليه، حتى الملحد بعقله، وهو منهج يوافق العامة، وهم السواد الأعظم في كل أمة وكل جيل، كما يناسب الخاصة، وهم الأقلون دائمًا.

فنظرة العامي إلى قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٥،٦] تثير إيمانًا ساذجًا بعجيب القدرة، كما أن نظرة (البيولوجي) عالم الحياة إلى منشأ الإنسان وخلقه تثير عجبه وإعجابه دائمًا وإيمانه العميق، ونظرة العامي إلى السماء وتلألؤ نجومها وسطوع شموسها وأقمارها، تبعث عنده الإيمان بمدبر هذا الكون وعظمته، والفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها وخلقها وأبعادها، أقدر على معرفة العظمة، وأشد إعجابًا بخالقها ومدبرها، وهكذا الشأن في العامي والفسيولوجي، والعامي والسيكولوجي، والعامي والفلسفي، كلهم صالح لأن يتأثر بهذا المنهج على اختلاف في استعدادهم ومداركهم وحياة عواطفهم وحياة عقولهم[١].

بعد هذا التحليل الدقيق الذي قدمه الأستاذ أحمد أمين، يستطرد مقارنًا بين طريقة القرآن الكريم والحديث، وطريقة المتكلمين وشيوخهم، فيذكر أن «طريقة المتكلمين وشيوخهم تغاير هذين الأصلين؛ فهم آمنوا بالله وما جاء به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية، فنقلوا الوضع من فطرةٍ وعاطفة

(١) أحمد أمين، «ضحى الإسلام»، ج٣، (ص١٧)، ط٣ مكتبة الأسرة بمصر ١٩٩٩م.

ومخاطب لها بالنظر في آيات الله، إلى دائرة العقل والنظر، ومن فن جميل، إلى علم ومنطق، ومن قلب إلى رأس، فبدلًا من أسلوب القرآن في نحو قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠] وضعوا طريقتهم في حدوث العالم، واضطر بعضهم ذلك إلى القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ، وإقامة الدليل على عدم حدوثها بنفسها، إلى أن يصلوا إلى إثبات الله... وهكذا سلكوا هذا السبيل في إثبات وحدانيته وسائر صفاته تعالى، وكانت كل خطوة من هذه الخطوات تثير أسئلة وجدلًا، وتفتح موضوعات جديدة، فساروا فيها إلى نهايتها»(١).

النظر في آيات الله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وسورة النمل آية ٦٠، وما بعدها، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٢، ٣٣]، وينظر آيات (٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥) من سورة الروم، وكلها تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾، وهي على التوالي تذكر: الخلق من تراب، والسكن والمودة والرحمة بين الزوجين، وخلق السماوات والأرض،

---

(١) نفسه (ص١٩).

واختلاف الألسنة والألوان، والمنام بالليل والنهار، والبرق وإنزال الماء من السماء إلى الأرض لإحيائها بعد موتها، وقيام السماء والأرض بأمره عَزَّوَجَلَّ.

التأويـــل:

ومن خصائص المنهج الكلامي أيضًا: التأويل؛ ذلك لأن المتكلمين لم يقنعوا -كما قنع غيرهم- بالإيمان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل، بل جرؤوا على ما لم يجرؤ عليه غيرهم، فأداهم النظر في كل مسألة إلى رأي، فإذا أداهم البحث إلى أن الإنسان مختار أوّلوا الآيات التي توهموا أنها تفيد الجبر، وأولوا الاستواء على العرش، وهكذا فعلوا في مسائل أخرى؛ فالتأويل عنصر من أهم عناصرهم، وأكبر مميز لهم عن السلف، «وهذان الأمران -أعني الاعتماد في البراهين على العقليات(١)، والتأويل- هما اللذان يعللان ما استفاض في عصور المتكلمين من خلاف ومن أقوال لا عداد لها، ومن براهين لا حصر لها، مما لم يكن معروفًا في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا الصدر الأول»(٢).

كما خالفوا السلف أيضًا لجعلهم النظر هو أول واجبات الإيمان، بينما يستدل ابن جمرة الأندلسي على موقف السلف بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ

(١) «ضحى الإسلام»، (ص١٥).

أما معنى التأويل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فيرى ابن تيمية أنه يراد به: حقيقة الشيء، كالكيفية التي لا يعلمها إلا الله، كما قال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول».

ويراد به: التفسير، هو كقوله: «الاستواء معلوم»، فإنّ تفسيره ومعناه معلوم.

ويراد به: تحريف الكلم عن موضعه، كتأويلات الجهمية، مثل تأويل من تأول الاستواء بمعنى «استولى»، وهذا الذي اتفق السلف والأئمة على بطلانه وذم أصحابه.

«درء تعارض العقل والنقل»، ج٧، (ص٣٢٨)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) نفسه.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق:١-٣] لمن ذهب من العلماء إلى أن أول الواجبات الإيمان دون النظر والاستدلال، شرط كمال لا شرط صحة؛ لأن قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ تمت به الفائدة وحصل به الإيمان المجزي، وقوله بعد ذلك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ هو طلب النظر والاستدلال، وهو زيادة كمال الإيمان؛ لأن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أكمل الناس إيمانًا، ولم يفرض الله عَزَّوَجَلَّ على الناس على أيديهم إلا الإيمان المجزي، وبقي الكمال يهبه لمن يشاء من أتباعهم»[1].

لهذا لا نعجب -بعد هذا التحليل الدقيق لعناصر منهج المتكلمين- إذا عارضه السلف وعلماء السنة، واستبدلوا به منهجًا آخر، مصدره الشرع، مع إعمال العقل في تفسيره وفهمه وشرحه. وقد استمسك علماء السنة والحديث بمنهجهم حتى عصرِنا الحاضرِ، فقد رأينا الإمام عبد الحميد بن باديس يذكرنا بطريقة القرآن، ناقدًا للمتكلمين والفلاسفة، إذ يقول: «بسط القرآن عقائد الإيمان، بأدلتها العقلية القريبة القاطعة، فهجرناها وقلنا: تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمره على الطلبة، فضلًا عن العامة... وبيّن القرآن مكارم الأخلاق وما يحصل به الفلاح بتزكية النفس، فهجرناها ووضعنا اصطلاحات من النسك الأعجمي والتخيل الفلسفي، ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام! ثم بين سبيل النجاة قائلًا: لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه، إلا بالرجوع إلى القرآن»[2].

---

(١) (ص١٣)، ج١، «بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها»- شرح مختصر صحيح البخاري المسمى «جمع النهاية في بدء الخير والنهاية» لأبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، المتوفى ٦٩٩هـ، ط دار الجميل، بيروت، دون تاريخ.

(٢) «تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس»، ج١، (ص٤١٠)، وينظر كتاب الدكتور محمود قاسم بعنوان «الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لثورة الجزائر»، ط دار المعارف بمصر.

ميزة منهج علماء الحديث والسنة هو اتباع منهج الصحابة في معرفة العقائد تأسيًا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

يرى علماء الحديث والسنة أن أفضل منهج لمعرفة العقائد الإسلامية هو استقراء حياة المسلمين الأوائل -من الصحابة والتابعين- لأنهم يعبرون عن النماذج في الفهم والسلوك، ولا يقصدون الرجوع تاريخيًّا إلى عصورهم للاقتداء بهم في طرق المعيشة التي كانوا عليها، بل يقصدون استحضار العقائد والقيم والمبادئ التي خلقت أشخاصهم خلقًا جديدًا. قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرستم قائد الفرس عندما سأله: ما جاء بك؟ فأجاب: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ من علينا بدينه، وأرانا آياته، حتى عرفناه، وكنا له منكرين!»[١].

وعرفوا رسالتهم، ففتحوا العالم حينذاك، وانتشروا في الأرض شرقًا وغربًا، رافعين لواء التوحيد، فدانت لهم شعوب وبلدان كانت تابعة للروم والفرس -أي الدولتين الكبريين في ذلك العصر- ولم يسعوا للغزو والاستعباد، ولكن لإخراج الناس من عبودية غير الله عَزَّ وَجَلَّ إلى عبادته وحده، وتحقيق العدل الذي أقيمت به السماوات والأرض، ولا عجب؛ فقد رباهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان كل صحابي كأنه أمة.

يروى أنه لما أبطأ على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أما بعد؛ فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، تقاتلونهم منذ سنين! وما ذاك إلا لما أحدثتم، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم. وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما أعرف، إلا أن يكون غيّرهم ما غيّر غيرهم»[٢].

---

(١) «حياة الصحابة»، ج٣، (ص٦٩٨)، محمد يوسف الكاندهلوي، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م، تقديم: الشيخ أبي الحسن الندوي، دار المعارف.

(٢) نفسه (ص٦٩١).

وكان هرقل ملك الروم مذهولًا بسبب هزيمة الروم، وأخذ يسأل متعجبًا: «ويلكم، أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا بشرًا مثلكم؟! قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟! قال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض، فقال: أنت صدقتني»[(١)].

كذلك فإن الدارس لحياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقف على ظاهرة أخرى لها صلة وثيقة بموضوع دراستنا -أي الحرص الشديد على طلب العلم والتعلم- فلم تشغلهم أسمى الغايات -وهي الجهاد- عن طلب العلم والحرص على متابعة كل جديد تعلمه أصحابهم الذين هم يشاركونهم في المعارك، «فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نغزو وندع الرجل والرجلين لحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنجيء من غزواتنا، فيحدثونا بما حدث به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنحدِّث به، نقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٢)].

---

(١) نفسه (ص١٩١).

من «آراء ابن تيمية في نظرية المعرفة» و«درء تعارض العقل والنقل»، ج٧، (ص٣٢٥). وقد تنازع الناس في السمع والبصر وأيهما أكمل؟ فذهبت طائفة، منهم ابن قتيبة، إلى أن السمع أكمل؛ لعموم ما يعلم به وشموله، وذهب الجمهور إلى أن البصر أكمل؛ فليس المخبَر كالمعاين. والتحقيق في هذا الباب أن العِيان أتم وأكمل، والسماع أعم وأشمل.

(٢) وينظر أبواب: الجمع بين الكسب والعلم- تعلم الدين قبل الكسب- تعلم الرجل لأهله- تعليم الرجل لسان الأعداء وغيره للضرورة الدينية- وترك الإمام رجلًا من أصحابه للتعليم- إرسال الصحابة إلى البلدان للتعلم- الرحلة في طلب العلم.

ويتبين منها كلها الحرص الشديد على طلب العلوم بأنواعها، فكيف بهم عند طلب علم العقائد وأصول دينهم؟ لا شك أنهم كانوا أشد حرصًا عليها!

إن الميزة الكبرى التي تميزهم عن غيرهم في قضايا العقائد ومسائل أصول الدين: أن الصحبة للرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مكنتهم من التعلم منه عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ مباشرة، فقد شاهدوه، وتتبعوا أعماله في دائرة الحياة الأسرية والاجتماعية والعسكرية والدولية، وأحبوه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -لشمائله- أكثر من حبهم لأنفسهم؛ فسهل عليهم الاقتداء به، فقد أخرج ابن سعد عن ابن شماسة المهري، قال: حضرنا عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو في سياق الموت، فحول وجهه إلى الحائط يبكي طويلًا، وابنه يقول له: ما يبكيك؟ أما بشرك رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بكذا؟ أما بشرك بكذا؟ قال: وهو في ذلك يبكي، ووجهه إلى الحائط، قال: ثم أقبل بوجهه إلينا، فقال: إن أفضل مما تعد علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكني قد كنت على أطباق ثلاث: قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إلي من رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا أحب إلي من أن أستمكن منه فأقتله، فلو مت على تلك الطبقة لكنت من أهل النار، ثم جعل الله الإسلام في قلبي فأتيت رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأبايعه، فقلت: أردت أن أشترط، فقال: تشترط ماذا؟ فقلت: أن يغفر الله لي، فقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اما علمت يا عمرو ان الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**» فقد رأيتني ما من الناس أحد أحب إلي من رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا أجل في عيني منه! ولو سئلت أن أنعته ما طقت؛ لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني؛ إجلالًا له، فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم ولينا أشياء بعد، فلست أدري ما أنا فيها، أو ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبنّي نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا عليّ التراب، فإذا فرغتم من قبري فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها؛ فإني أستأنس بكم، حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي. «أخرجه مسلم بسند ابن سعد بسياقه نحوه»[1].

(١) «حياة الصحابة»، ج٣، (ص٥٢- ٥٣).

لا عجب إذن أن يتبوأ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ القمة في التأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقائد وسلوكًا، وأن يعضوا بالنواجذ على الكتاب والسنة لضمان استمرارية الرسالة التي نيطت بهم بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمحافظة على العهد الأول، فلم يفرطوا في شيء من عقائد الإسلام وشرائعه، فقد تصدى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأهل الردة بقوة، فمن أقواله: «والله لا أبرح أقُوم بأمر الله وأجاهد في سبيل الله، حتى ينجز الله لنا، ويفي لنا عهده، فيقتل من قتل منا شهيدًا في الجنة، ويبقى من بقي منا خليفة الله في أرضه، ووارث عباده الحق، فإن الله تعالى قال -وليس لقوله خلف-: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور:٥٥]»[(١)].

إن هذه المواقف وغيرها مما تضيق هذه الدراسة عن استيعابه- خير دليل على تمكن الإيمان من القلوب، والمعرفة الصحيحة لعقائد الإسلام التي تلقاها الصحابة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي علمهم كل شيء، وأولها -بداهةً-: مسائل أصول الدين؛ فمنها:

- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث رجلًا على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلواتهم، فيختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**سلوه لأي شيء يصنع هذا؟**» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخبروه أن الله عَزَّ وَجَلَّ يحبه**» [أخرجه الشيخان][(٢)].

- وأخرج أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلنا: يا رسول الله، إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد. قال

---

(١) نفسه (ص٦٠).

(٢) نفسه (ص٢٢).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو أنكم تكونون كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم...**» إلى آخر الحديث. روى الترمذي وابن ماجه بعضه[1].

-وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء! إني لأسمع خولة بنت ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي تقول: يا رسول الله، أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي- ظاهرَ مني، اللهم إني أشكو إليك! قالت: فما برحت حتى نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١])[2].

-وأخرج البيهقي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل: كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**»[3].

- وأخرج الإمام أحمد عن الوليد بن عبادة قال: دخلت على عبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو مريض، أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لم تطعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك**

---

(١) نفسه (ص٩٣).

(٢) نفسه (ص٢٧- ٢٨).

(٣) نفسه (ص٣٤-٣٥). قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار» [أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب][1].

إلى غير ذلك من وقائع تصور لنا كيف حقق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بسلوكهم ما اعتقدوه إيمانًا، فمع صدق الإيمان كادوا يعاينون مشاهد الآخرة وهم في الدنيا. وقد مضى بنا حديث أبي هريرة عن وصف أنفسهم عندما يكونون عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فترق قلوبهم، فيصبحون من أهل الآخرة.

– وكان البعض يترقب علامات الساعة الكبرى التي علم بها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أخرج ابن جرير عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذات يوم، فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت، قلت: لم؟ قال: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت. وفي رواية الحاكم: «فخشيت أن يكون الدجال قد طرق».

– أما الروايات الدالة على تمثل الحياة البرزخية بعد الموت، فهي أكثر من أن تحصى، نختار منها ما رواه أبو نعيم عن الضحاك بن عبد الرحمن قال: دعا أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتيانه حين حضرته الوفاة، فقال: اذهبوا واحفروا وأوسعوا وأعمقوا على قبري، حتى تكون كل زاوية منه أربعين ذراعًا، ثم ليفتحن لي باب إلى الجنة، فلأنظرن إلى أزواجي ومنازلي وما أعد تعالى لي من الكرامة، ثم لأكونن أهدى إلى منزلي مني اليوم إلى بيتي، ثم ليصيبني من ريحها ورَوْحها حتى أبعث، ولئن كانت الأخرى –ونعوذ بالله منها– ليضيقن علي قبري، حتى يكون في أضيق من القناة في الزج، ثم ليفتحن لي باب من

---

(١) نفسه (ص٣٠).

أبواب جهنم، فأنظرن إلى سلاسلي وأغلالي وقرنائي، ثم لأكونن إلى مقعدي من جهنم أهدى مني اليوم إلى بيتي، ثم ليصيبني من سَمومها وحميمها، حتى أبعث[1].

ولْنعد بعدُ لشرح موقف الصحابة من العقائد، بالمقارنة بمن تلاهم من القرون، فنقول: إذا كانت الأجيال التي تلَتهم قد تلقت العقائد بالتعلم -سماعًا أو قراءة ودراسة ونقلًا- فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تميزوا بتعلم العقائد من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة، لا بالصيغة النظرية المجردة -كما نجدها مدونة بكتب علم الكلام- بل إنهم من فرط استيعابهم لها عايشوها وتفاعلوا معها في حياتهم وواقعهم، وكفى بهذا دليلًا على عمق فهمهم لها وتدبرهم لأبعادها؛ فكيف يظن أحد -مع هذا السجل الحافل الذي لم ننقل عنه إلا النزر اليسير- أنهم كانوا مشغولين بالجهاد، فلم ينظروا ولم يتدبروا قضايا العقائد ومسائل أصول الدين -كما يتوهم بعض المتكلمين-؟!

والحق أنهم وضعوا قواعد المنهج السليم في بحث أصول الدين، ثم سلك سبيلهم التابعون والأئمة، إذ -كما قال ابن تيمية- «لم يكن منهم يعارض النصوص بمعقوله، ولا يؤسس دينًا غير ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا أراد معرفة شيء من الدين، والكلام فيه- نظر فيما قاله الله عَزَّ وَجَلَّ والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنه يتعلم، وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل... فهذا أصل السنة»[2].

---

(١) نفسه (ص٣٨).

(٢) ابن تيمية، «الفرقان بين الحق والباطل»، (ص٤٧).

فصل
الاستدلال على العقائد الإسلامية بالكتاب والسنة

استهلال

في الوقت الذي تشاع فيه الأفكار حول العقائد الإسلامية: بين من يغالي فيها، وبين من يجهلها، في هذا الوقت أصبح ضروريًّا تقديم العقائد في إطار يتيح لكلا الطرفين فهمها والاقتناع بها.

وكثيرًا ما كنت أتأمل شدة الانفعال عند علمائنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الدفاع عن العقائد أمام فرق الجهمية والقدرية أو المعتزلة والمرجئة والشيعة، وأتساءل: كيف نخاطب الأجيال المعاصرة بنفس لغة علمائنا السابقين، وقد اختلفت الأطر الثقافية التي تربّت عليها: بين مناهج أجنبية، وأخرى وطنية، أو قومية، وكانت دراسة الدين كأمر عابر لا يؤثر في المحصلة الثقافية للأجيال التي تربت -مع الأسف- في ظل الاستعمار الثقافي، وكان هدفه تفريغ المسلمين من عقائدهم الصحيحة، وحشو العقول بما هو غث.

وأيضًا، ما للأجيال الجديدة وعرض فرق الجهمية والقدرية والمرجئة والشيعة[1]؟

---

(١) ونلفت نظر الباحثين والقراء إلى الموسوعة الممتازة التي ألفها الأستاذ الدكتور ناصر بن عبد الله ابن علي القفاري، الأستاذ بجامعة محمد بن سعود الإسلامية، بعنوان «أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية- عرض ونقد»، ثلاثة أجزاء، وتقع في (١٣٨٠) صفحة من القطع الكبير.
وقد قضى فيها أربع سنوات!
وفيما يأتي: خلاصة موجزة لبعض النتائج:
- أثر الشيعة المعاصرين في العالم الإسلامي، بإحداث الشرك في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصد عن دين الله، وظهور فرق الزندقة والإلحاد، ومحاولة إضلال المسلمين في سنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتأثير السلبي في الأدب والتاريخ، وفي بعض المفكرين المنتسبين للسنة، وإثارة الفتن الداخلية =

ولكن عندما راقبت حملات الهجوم على عقائد الإسلام وشرائعه بأسلحة العلمانيين واللادينيين والمتغربين، راجعت نفسي، وأخذت أتأمل المصطلحات المستخدمة في الحرب الفكرية المعلنة الآن، فوجدت تصوراتهم عن الدين لا تختلف عن تصورات الفرق المنقرضة التي أشرت إليها آنفًا، مع اختلاف الأسماء؛ فإن الجهمية -بإنكارهم لصفات الله عَزَّوَجَلَّ، وهجرهم للنصوص بالكتاب والسنة التي تتناول أسماء الله وصفاته- هم أنفسهم المتغربون المعاصرون الذين يتجاهلون النصوص أو يجهلونها، ويخترعون تعريفات من عند أنفسهم للألوهية، كالقول بـ: «مهندس الكون الأعظم»، و«القوى الكبرى»، وأنه في كل مكان!

وأما الذين يغالون في (الحرية الإنسانية)، وينسون أن هناك إرادة ومشيئة إلهية كونية أسبق من الإنسان، فهم يتشابهون مع (القدرية- أو المعتزلة) الذين نفوا القدر الإلهي، وضخموا إرادة الإنسان وجعلوه وحده محور الأعمال، فأحسنوا في جانب الحرص على الأمر والنهي، ولكنهم حرموا أنفسهم من بعث الإيمان في التوكل على الله، ودعائه، والالتجاء إليه، باعتبارهم عبادًا مخلوقين، في حاجة لا تنقطع إلى خالقهم وفاطرهم ورازقهم ومعينهم في الشدائد والمحن.

= بين المسلمين، والاغتيالات للقيادات الإسلامية -ولا سيما الذين يحملون اسم (عُمر)- ولا نغفل إراقة الدماء في سوريا والعراق واليمن، ونشر الفاحشة عن طريق ما يسمونه بـ «المتعة الدورية» وغيرها. وفي المجال الاقتصادي: أخذ الأموال باطلًا باسْم آل البيت، ويؤججون مشاعر العامة بتمثيلهم لمأساة كربلاء، بدق الطبول، وسرد الأقاصيص الكاذبة عن الظلم المزعوم؛ مما يؤدي إلى شلل العقل، والتقبل الأعمى للمعتقد، ولا سيما عند الأعاجم والعوام.

ويقول الدكتور ناصر في الخاتمة: «وإن أعظم وسيلة لمعالجة وضع الشيعة هو بيان السنة للمسلمين في كل مكان، وبمختلف الوسائل، وبيان حقيقة الشيعة ومخالفتها لأصول الإسلام بدون تقليل أو تهويل» (ص١٢٨٧)، ج٣، ط٢. فجزاه الله خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين. ط٢، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م، دون اسم الناشر.

وكذلك الذين يشهدون بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يركنون إلى الشهادة، ويهملون العمل بمقتضاها؛ لأنها فاتحة لباقي أركان الإسلام من العبادات الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والعبادات القلبية، كمحبة الله تعالى، ورجاء مغفرته، والالتجاء إليه، والخوف منه، وغيرها من أعمال القلوب.

هؤلاء من المعاصرين يتخذون -دون أن يدروا- نفس موقف فرقة (المرجئة) التي ظهرت في تاريخنا، مع غلوهم في الإرجاء، حتى إن بعضهم لا يصلي!

ويقدم لنا الدكتور هوفمان مثالًا مجسدًا في بعض الأتراك، وهم النتاج المستنير الزائف لتركيا العلمانية بعد جريمة أتاتورك التي دفن بها الإسلام، فيقول: «إن البعض منهم يغرم بترديد دعاء: حقًّا إني لا أمارس الشعائر الإسلامية، ولكني مؤمن بالله من أعماق قلبي، إن إيماني الطبيعي هذا أفضل من الصلاة خمس مرات يوميًّا!»[1].

هذا وقد سبق نشر هذا البحث منذ سنوات، ونعيره ها هنا مع بعض الإضافات المتصلة بمستجدات الحرب الفكرية على العقائد الإسلامية؛ وذلك لاتصاله بموضوع الكتاب؛ لكي نؤكد سلامة منهج علماء الحديث والسنة، حيث اشتدت الحاجة إليه بعد أن زاد غلو المستغربين والحداثيين في هجماتهم على علماء أهل السنة والجماعة، كما تعرضت العقيدة السلفية لطعنات بجُرأة متناهية غير مسبوقة ولا مقبولة ممن يسمون أنفسهم بـ «التنويريين» و«العقلانيين» و«الحداثيين»[2]، وهم في حقيقة الأمر لهم أشباه

---

(١) د. مراد هوفمان، «يوميات ألمانيّ مسلم»، (ص٨٠- ٨١)، ترجمة: د. عباس الصماري، ط الأهرام ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

(٢) وتعريف (الحداثة) في «الموسوعة الكاثوليكية»، ط ١٩٨١، هو أنها تعني «أزمة دينية حفرت بعمق أركان الكنيسة الكاثوليكية خلال العقد الأول من القرن العشرين... وقد تم استخدام عبارة «الحداثة» منذ القرن التاسع عشر؛ للإشارة إلى الاتجاهات المعادية للمسيحية في العالم الحديث. =

ونظائر بالفرق التي ظهرت في (ضحى) التاريخ الإسلامي[1]، مثل: الخوارج، والقدرية، والمرجئة، ولكن باصطلاحات مستعارة من المذاهب الفلسفية الوافدة مع الغزو الفكري الاستعماري، والفرق بينهما أن السابقين عليهم استخدموا الفلسفة اليونانية، أما هم فقد خضعوا خضوعًا تامًّا للفلسفة المعاصرة الغربية، دون الوعي بالاختلاف البين بين تاريخنا الإسلامي وبين التاريخ الديني والفلسفي للحضارة الغربية!

وهناك كاتب حداثي حاول موضعة الإسلام داخل دائرة التأويل المادية الكبرى؛ للقيام بنقد أصوله، فحول الربانية إلى إنسانية وُجودية، كما حول حداثيٌّ آخر الإلهيات إلى إنسانيات، وهي محاولة تحمل في لغتها العلمانية محدودية ظواهرها، ولو ارتفعت تلك اللغة إلى مستوى أعلى لَسقط كل بنائها من أعلاه إلى أسفله؛ ذلك أن وضع العنصر الفوقي السماوي الرباني في لغة التحليل، والنظر إلى واقع ما أنتجه بالفعل- سيؤدي إلى إثبات حقيقة أن لغة الوحي القرآني مليئة بعلوم فوق المؤلف البشري والمجتمع البشري والتجربة البشرية، لغة أتت بجديد على اللغة البشرية قاطبة، ومنحت العالم طريقًا وجوديًّا علميًّا وقيميًّا لم يكن من قبل؛ ومن هنا تكون معطيات الوجودية المعاشة قاصرة[2].

= المصدر: د. زينب عبد العزيز، «هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة: الحداثة، والأصولية»، (ص٣٨)، ط دار الكتاب العربي، دمشق، ٢٠٠٤م، و«صليبية الغرب ومصطلحاته».

(١) بحسب اصطلاح الأستاذ أحمد أمين بكتابه «ضحى الإسلام».

(٢) طارق منينة، «تناولات مادية لنصوص القرآن- نصر أبو زيد نموذجًا»، (ص٢٤)، ومجلة «البيان»، شوال ١٤٣٦هـ- أغسطس ٢٠١٥م.

تعليقنا: وفضلًا عن انحراف منهج الحداثيين فإن موقفهم دال أيضًا على قصور في الاطلاع على مؤلفات علمائنا المعاصرين الذين تتبعوا أباطيل المستشرقين، وردوها إلى نحورهم، بأدلة وبراهين علمية وتاريخية وعقلية منطقية، منهم: الشيخ رشيد رضا، بكتابه الشهير «الوحي المحمدي» الذي قال لهم: «ونحن نتحداكم الآن بالإتيان بعلل أخرى لما عرضناه على أنظاركم من وحي الله =

ونجتزئ -فيما يأتي- بعض التعريفات للحداثة، ونشأتها، ودورها:

١- مصطلح (الحداثة) هو منهج فلسفي غربي نشأ في القرن الثامن عشر، ولبه يعتمد على العلمنة، وتمجيد الآلة، والتبشير بمستقبل حرّ بعيد عن سيطرة الأديان.

٢- كانت الحداثة في المجتمعات الغربية نتيجة طبيعية لما مرت به من صراعات وثورات وحروب ونهضة صناعية واقتصادية، وعمد دعاة التنوير في بلادنا -التي

= تعالى وكتابه لمحمد ﷺ، مع القطعي من تاريخه، علل يقبلها ميزان العقل المسمى بـ «علم المنطق»، وسنن الإنسان، وعلم الاجتماع!».

المصدر: محمد رشيد رضا، «مختصر كتاب الوحي المحمدي»، (ص٢٠١)، الدار العربية، محرم بك- الإسكندرية، ٢٠١٨م.

أما تعريف (الأصولية) التي استخدمها أحد الحداثيين أيضًا فإنها كلمة قد أوجدت في الخطاب الأوربي خصوصًا عند وصول معركة الكنيسة ضد الحداثة إلى ذروتها الطاحنة، أي إنها كلمة يرتبط معناها الأساسي بالصراع الكنسي حفاظًا على الأصول التي نُسجت وكتبها بشر على مر العصور، وعبثت بها الأيادي عبر المجامع وفقًا للأغراض السياسية والمصالح البابوية، (ص٧٠- ٧١)، المصدر نفسه د. زينب عبد العزيز «هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة: الحداثة، والأصولية»، و«صليبية الغرب وحضارته».

ولكن المتابع لطريقة المستغربين يلاحظ أن هذا المصطلح نُزع من سياقه التاريخي الديني لأوروبا، واستخدم في القضايا الإسلامية بلا مبرر. مثال ذلك: قول الدكتور (وهبة) باقتراحه تجديد الخطاب الديني بواسطة المثقفين لكي يقوموا بتغيير الخريطة الذهنية المصرية من (الأصولية) إلى (التنوير)! والتنوير المقصود في عبارته هو قرين الحداثة! في حديثه للأهرام بتاريخ ٢٠/ ٨/ ٢٠٢١م.

تقول الدكتورة زينب عبد العزيز بكتابها: «الأصولية والحداثة من الكلمات المصيرية التي تحكمت -ولا تزال تتحكم- في مصير الشعوب الغربية والمسيحية... أما محاولة فرض مثل هذه الكلمات وإقحامها في الخطاب الإسلامي فيعد تخريبًا مرفوضًا، لا بد له من التصدي له؛ لأن نص القرآن الكريم منزل لم يتعرض لأي تحريف، والإسلام لم يعرف أي معركة بين القرآن والتقدم العلمي أو العلماء».

لم تعرف تلك الظروف- إلى استيراد الحداثة الغربية، ومحاولة زرعها غريبة في تربة لا تناسبها؛ فنشأت كائنًا مشوهًا، سمم التربة، ونشر فيها الخراب.

٣- كان دعاة التنوير والحداثة ينفذون -بعلم، أو دون علم- مخططًا تآمريًّا على روح الأمة وتراثها، فرافق دعواهم الهجوم على القيم والثوابت والدين واللغة التي تحتوي هذا كله؛ بدعوى أنها تمثل عصور الظلام، وأن (الحداثة) تقتضي الثورة على كل ذلك وتحطيمه![1]

هذا ومن أفضل المصادر للحداثة هو كتاب الدكتور عبد الوهاب المسيري بعنوان «دراسات معرفية في الحداثة الغربية»، وقد خلص فيه إلى القول إن المشروع التحديثي (في الإطار المادي المنفصل عن القيمة) هو ذاته مشروع العلمنة والترشيد والتنوير (في الإطار المادي)، وهو مشروع يبدأ بإعلان أن العالم مكتف بذاته يحوي داخله ما يكفي لتفسيره ولتأسيس منظومات معرفية وأخلاقية، وداخل هذا الإطار المادي يُرد الإنسان إلى المادة، ويُفكَّك فتسقط مقولة الذات الإنسانية الحرة، وتُستوعب في الطبيعة/ المادة. ويرى أنه إذا كان المشروع التحديثي العقلاني المادي غربيًّا، فنحن إذن -بروحانيتنا وإسلامنا- محصنون -والحمد لله- ضده[2].

وهذا صحيح، لكننا في حاجة إلى الاستمرار في تحصين أنفسنا؛ لأن الحداثيين لن يتركونا وشأننا، بل هم عازمون على تقليد أمثالهم في الغرب، فقد كانت الحداثة هناك

---

(١) د. عبد الله حمد محارب، مفكر وناقد أدبي كويتي، مقال بعنوان «الحداثة وأثرها في الأدب العربي»، (ص١٠٠- ١٠١).
مجلة «المنار الجديد»، القاهرة، ربيع الأول ١٤١٨هـ- يوليو ١٩٩٨م.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري، «دراسات معرفية في الحداثة الغربية»، (ص١٢٦)، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م. ويقع الكتاب في نحو أربعمائة صفحة (٤٠٠) من القطع الكبير.

«ترمي إلى تغيير بنية العقيدة المسيحية نفسها... وأصبح الشخص المنتمي للحداثة يسعى لتغيير التراث ليتأقلم مع الواقع المعاصر»(١).

لذلك يجب أن نحافظ على يقظتنا والاحتراس من أهدافهم، ونضع نصب أعيننا قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

يقول العلامة السعدي: «هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها وفاقوا بها على سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس: نصحًا، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليمًا، وإرشادًا، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وجمعًا بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم -بحسب الإمكان- وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان»(٢).

كذلك أمر الله تعالى أن تتفرغ طائفة للقيام بهذه الفريضة، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقد توعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأمة بأشد العقوبات إذا هي تخلت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إلا سلط عليهم عدوًّا من غيرهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله** عَزَّ وَجَلَّ **ويتخيروا فيما أنزل الله إلا**

---

(١) د. زينب عبد العزيز، «هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة: الحداثة، والأصولية»، (ص٤٦)، مصدر سابق.

(٢) تفسير السعدي، (ص١٢٦)، مكتبة الصفا بالأزهر، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

جعلَ بأسهم بينهم»[1]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: **«من راى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[2].

واعترافًا بالواقع المَعِيش، قد قام الحداثيون في بلادنا بتنفيذ فلسفتهم بشكل كلي، وسعوا في التدمير والهدم اجتماعيًّا وأخلاقيًّا بواسطة الأدب والتلفزيون والمسرح والسينما والموسيقا والأغاني؛ مما جعل أحد علماء الأنثروبولوجيا الإنجليز يتخذ من (الحداثة في مصر) موضوعًا للحصول على درجة الدكتوراه! ويقول: «يركز التحديث في مصر على قطع الصلات كوسيلة لتمهيد الطريق أمام أنماط اجتماعية أكثر عقلانية، وهي عملية يسميها هرفي (١٩٩٨م) «التدمير البناء»!»[3].

ولم يفلت التعليم أيضًا، إذ يقول: «وفي البداية، يجب أن نقول: إن التعليم العام، وهو الطريق الأساسي والحتمي للتحديث في رأي الثقافة الرسمية من (لويس عوض) وحتى «الراية البيضاء»... »[4].

---

(١) أحمد بن صالح الزهراني، «صنف نفسك»، (ص١٤٤)، دار الأندلس الخضراء، ١٤٢٠هـ، جدة. والحديث أخرجه ابن ماجه في الفِتَن، باب العقوبات، والحاكم (٤/ ٥٤٠)، وغيرها، عن ابن عُمر، وصححه الألباني في «الصحيحة».

(٢) نفسه (ص١٤٥)، والحديث أخرجه مسلم في الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) وولتر أرمبرست، «الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر»، (ص١٢)، ترجمة: محمد الشرقاوي، مكتبة الأسرة في مصر، ٢٠١٢م.

(٤) نفسه (ص٥٢). و«الوردة البيضاء» فيلم قام بالتمثيل فيه الموسيقار محمد عبد الوهاب، «وهو في الحقيقة فيلم حداثي مصري في الأساس»، (ص١١١).

ويقول في (ص٧٢) واصفًا إحدى «مقامات التونسي»: «وفي مقامة (كامب شيزار) على سبيل المثال يصور التونسي طالبينِ من طلاب الأزهر بشكل ساخر»، (ص٧٤). ويقول في (ص٧٤): «شخصيات طلاب «مقامات التونسي» غير الوقورين، والطماعين، والعاطلين!». =

= والكتاب يقع في (٢٨٢) صفحة من القطع الكبير. هذا والكتاب في مجمله سجل حافل بتاريخ الحداثة في مصر، مع ذكر أسمائهم وأنشطتهم، ويذكر مؤلفه واقعات تاريخية ومعاصرة، بتتبعه لتطورات السينما والمسرح، وذكر أسماء الممثلين والممثلات والمخرجين، ويتضمن معلومات غزيرة عن صحفيين وأدباء ومؤلفين.

ومع غزارة المعلومات وأهميتها لدارس تاريخ الحداثة في مصر، ومعرفة ممثليها والداعين إليها، سنكتفي بعرض بعض آراء المؤلف فيما يأتي:

- «كانت مجلة «الإثنين» الأسبوعية واحدة من الساحات التي يتم فيها تحسين حداثة الطبقة المتوسطة في أيام أوج مجد (عبد الوهاب)». (ص٩٤).

- أصبحت وسائل الإعلام في القرن العشرين وسيلة مهمة لنشر مبادئ الحداثة في مصر. (ص١٢).

- «وقد يكون بعض المصريين يعرفون أن (سناء جميل) قد مثلت باللغة الفرنسية، فقد نشرت مجلة «أكتوبر» عام ١٩٧٦ أنها ستمثل في مسرحية فرنسي اسمه (رقصة الموت)، مع (جميل راتب)». (ص٢٥٧).

- يذكر أدونيس أن الحداثة العربية عملية تقدمية بدأت من القرآن! (ص٢٦١).

- «إن بداية التحول والنهضة في الأدب العربي الحديث تكمن في تحول الأديب العربي من أقصى التطرف في المحافظة والثبات، إلى التحرر والتطور». (ص١٣).

- صاحب فيلم «خلي بالك من زوزو» هو حسن الإمام، وهو الذي أخرج عددًا من الأفلام المنتشرة المأخوذة من أعمال لنجيب محفوظ... (أم زوزو) هي (تحية كاريوكا) التي كانت راقصة وبطلة سينمائية في حقبتي الأربعينيات والخمسينيات، و(زوزو) دور قامت به (سعاد حسني) بطلة السينما الشاملة في الستينيات والسبعينيات. (ص٢٧٤)

- كانت رغبة الدكتورة نفوسة زكريا (١٩٦٤م) التخلص من العاميات العربية، وقد انضم لها الدكتور إبراهيم مدكور (١٩٩٠م) رئيس المجمع اللغوي بالقاهرة، وكان متفائلًا بأن العامية في طريقها للزوال. (ص٦٣)

- في بداية السبعينيات، قامت أول حركة إسلامية أيدولوجية في الجامعات المصرية... وفي السينما المصرية عندما يتم تصوير الإسلاميين يتم ذلك بصورة سيئة... وفيلم «الإرهابي» الذي أخرجه (نادر جلال) عام ١٩٩٤م يصور الإسلاميين على أنهم تعوزهم أصول التعليم الأساسية، وقادمون من خارج المؤسسات الرسمية الثقافية. (ص٢٧٥)

- كان (عادل إمام) الفنان التمثيلي الوحيد الذي اشترك في تشييع جنازة (فرج فودة) المناهض للإسلاميين، كما كان الوحيد الذي مثل فيلمًا بهذا الصدد، وأخرجه له (نادر جلال)، واستقبلت الحكومة هذا الفيلم بكل الترحيب. (ص٢٧٨) =

= - كان (سلماوي) هو مدير التحرير لجريدة (الأهرام) الإنجليزية... وفي عام ١٩٩٣م وجدته يعمل في مشروع آخر، وهو (الأهرام) الفرنسي.
وتعليل (الأهرام) بالإنجليزية هو اللحاق بركب العولمة، وتكريس التعبير بالإنجليزية. (ص٢٧٧)
-« مائة عام من التنوير» هي عمل نشرته الحكومة، وهو من إبداع الفنان المعاصر (صلاح عناني) الذي يدير (مركز الغوري للفنون). (ص٢٨٠)
- فكما كان الحال في الحداثة الغربية فإن المصريين يتمتعون بتنوع كبير في الفكر والممارسات الحداثية... وبعضهم يحاولون تقديم الحداثة من خلال المؤسسة التعليمية والثقافة الجماهيرية. (ص٢٨٠)
-(صافيناز كاظم) كانت من أوائل النساء المثقفات اللاتي يضعن الحجاب الإسلامي الذي يرتديه معظم نساء مصر الآن. لقد سعدت عندما تعرفت عليها في حجرة الطعام الجيدة، وعرفت أنها درست في جامعة (كانسس)، وهي غير بعيدة عن مسقط رأسي. وتقول: إن دراستها تلك جعلتها أكثر تصميمًا على أن تعيش حياة إسلامية حقيقية، فقد رفضت أن تسلم عليّ. (ص٢٨١)
- أعرف فيلمين مصريين فقط تناولا موضوع (الشذوذ الجنسي)، هما: «حمام الملاطيلي» الذي أخرجه (صلاح أبو سيف) عام ١٩٧٣م، وهو لم يدن الشذوذ بقدر ما وصفه على أنه جزء من الانحلال الأخلاقي الذي أدى إلى هزيمة ١٩٦٧م... والثاني «مرسيدس» ١٩٩٣م، ومخرجه (يسري نصر الله) يتبنى فكرة أن الميول الجنسية للفرد تولد معه، وهي ليست مسألة أخلاقية. (ص٢٨٢).

فصل

تعليل أخطاء المستغربين والحداثيين

إن الأخطاء التي يقع فيها المستغربون والحداثيون ترجع في مجملها إلى ثلاثة عوامل، هي:

الأول: المغالطات التي حذر منها الدكتور عبد الرحمن بدوي في الأبحاث الدينية، حيث تستخدم بعض الاصطلاحات التي تفقد معناها باقتلاعها من سياقها، ثم تفسر بطريقة أخرى لا تمت بصلة للموضوع الذي يعرضه الباحث[١].

الثاني: قصورهم في الاطلاع على مؤلفات علماء الإسلام المعاصرين، ونخص بالذكر منهم اثنين، هما: الإمام رشيد رضا، والدكتور دراز، كما سنعرض ذلك في الصفحات الآتية.

الثالث: وهْم الاعتقاد بأن نهضة العالم الإسلامي في هذا العصر لن تتحقق إلا بسلوك الطريق نفسه، الذي سلكته أوروبا في عصر النهضة، ألا وهو التحرر من قيد الدين. ويرجع انحراف ذلك الاعتقاد إلى عدم الوعي باختلاف مفهوم الدين ووظيفته عندنا، وما يقابل ذلك عند الأوروبيين، فضلًا عن انطلاق العقل في أوروبا في اتجاه معاد للدين، هو رد فعل لاضطهاد الكنيسة للمفكرين والعلماء، وهو لم يتفق لنا، ولن يتفق في العالم الإسلامي؛ إذ يمكن أن تتحقق الانطلاقة الفكرية والعلمية في ظل الإسلام، وقد تحققت بالفعل في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، واستفادت منها أوروبا في بناء نهضتنا الحديثة.

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي، «مناهج البحث»، (ص٢٠٨)، دار النهضة العربية بالقاهرة، ١٩٦٣م.

ويقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني[1]: «ولسنا في حاجة إلى إسهاب القول في أن معظم مفهومات الفلسفة المعاصرة في أوروبا مناقض للإسلام؛ فهي تنطلق من الإلحاد، وهو ظلمات، بعضها فوق بعض، وكل فيلسوف ينطلق في عصرنا من الإلحاد ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]»[2].

يتبين إذن المنهج العلمي الصحيح المفترض قيامه وفق البحث النزيه وإخلاص النية لمعرفة الحق، هذا المنهج يقودنا إلى معرفة مدى الاختلاف الجذري بين تاريخ حضارتنا الإسلامية الذي اتصف بالازدهار الشامل الرائع، وأضاء العالم في العصر الوسيط، وبين حضارة الغرب التي مرت بعصر وُصف بأنه مظلم.

إن حضارتنا أُسست منذ البداية على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، والموازنة بين أحوال العرب في الجاهلية وأحوالهم بعد إسلامهم تبرهن على التأثير الفعال للقرآن الكريم مع سنة الرسول ﷺ الذي صبغ حياته بالقرآن، وبه أيضًا ربى صحابته رضي الله عنهم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، كما يتضح لنا عند الحديث عن مكانة القرآن الكريم في قلوب المسلمين الأولين.

---

(١) وللدكتور التفتازاني مشروع متكامل لتدريس الفلسفة وفق قواعد منهجية وضعها، كفيلة بدرء خطر الإلحاد عن شبابنا، وحمايته من ذوبان شخصيته في الشخصية الغربية، ويطمح أن تتجاوز البشرية حضارة الغرب إلى نوع آخر من الحضارة أفضل وأكمل، تضم خير ما في تلك الحضارة، وتقيم التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي، وتجعل دعائمها الإيمان بالله، والعلم، والعدل الاجتماعي. وهنا يبرز الدور الذي يجب أن يقوم به المسلمون في هذا العصر -انطلاقًا من دينهم- ليحققوا أمل البشرية في مستقبل أفضل. (ص٣٤٢)

(٢) د. أبو الوفا التفتازاني، بحث بعنوان «تدريس الفلسفة- منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة في الجامعة»، (ص٣٤٩)، مجلة «الجمعية الفلسفية المصرية»، يناير ١٩٩٦م.
وإني أضم صوتي إلى صوته، وبخاصة بعد أن عانينا آثار الفلسفة في بعض مثقفينا، وانحرافات الحداثة والعلمانية وخيرُ دليل على ذلك.

وكان الأَولى بالمستغربين دراسة تاريخهم الإسلامي بأمانة؛ لأن هذا التاريخ يبرهن على ما شرحناه آنفًا، وقد اعترف به المؤرخون شرقًا وغربًا، بما فيهم من المستشرقين الذين يتخذونهم أساتذة. أما الإصرار والمكابرة فإنه دليل على خطأ في المنهج، والتواء في التلقي والفهم!

ولو رفعوا عن أعينهم الغشاوة، وأخلصوا النية في البحث عن الحق- لَاتضح لهم أن القرآن الكريم هو الأساس الذي أقام العرب عليه الحضارة الإسلامية؛ وفيما يأتي البيانُ:

مكانة القرآن الكريم في قلوب المسلمين الأولين -ولولا القرآن لَما أقام العرب الحضارة الإسلامية-:

كان المسلمون في عصر النبي ﷺ وبعده، كانوا يقرأون القرآن أو يسمعونه، فيُعنون بتفهم روحه، فإن عُني علماؤهم بشيء وراء ذلك فبما يوضح الآية من سبب للنزول، أو استشهاد بأبيات من أشعار العرب، تفسر لفظًا غريبًا أو أسلوبًا غامضًا. وأكثر ما روى لنا الطبري وغيره عن الصحابة رضي الله عنهم هو من هذا القبيل.

وتغير الحال في أواخر العصر الأُموي وأصبح علماء الكلام ينظرون إلى القرآن من خلال الفلسفة اليونانية، «فقد استخدموا الأدلة اليونانية في العقائد الدينية، وهي غير الطريقة التي نحاها القرآن الكريم في الدعوة إلى الدين»[1].

روى البخاري والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه (المتوفى ٩٠هـ)، قال: «ما أعرف شيئًا مما كان على عهد رسول الله ﷺ! قيل: الصلاة؟ قال: أليس صنعتم ما صنعتم فيها؟!».

(١) أحمد أمين، «ضحى الإسلام»، ج١، (ص٣٩٩)، ط٢، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.

ويعلق الأستاذ أحمد أمين على ذلك بقوله: «فأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد شاهد عصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعصر الأُمويين، ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف الأنظار والأعمال، فكيف إذا شاهد العباسيين ومن بعدهم؟!»(١).

وفي حديث الدكتور طه حسين عن معجزة القرآن يقول: «كان معجزًا بألفاظه ومعانيه... وكان معجزًا بآثاره التي ظهرت في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وبآثاره التي ظهرت بعد وفاته، والتي لا يزال كثير منها باقيًا إلى الآن، وإلى آخر الدهر، وصدق الله حين قال في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥]، فقد خشعت قلوب العرب للقرآن آخر الأمر، نفذ إلى قلوبهم، واستأثر بضمائرهم، وفتح آفاقًا كانت مغلقة أمامهم قبل أن يتلى عليهم، وحررهم من الرق، رق النفوس للشهوات، وطهرهم بعد الرجس، رجس الخطايا والآثام، ووحدهم بعد الفُرقة، وأعزهم بعد الذلة، وملأ قلوبهم نورًا، فانبثوا في الأرض ينشرون نور الله ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا»(٢).

ونجد مصداق ذلك في حديث (رستم) قائد الفرس، حيث أخذ يتفاخر بقومه، ويعظم أمرهم أمام المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، موازنًا بينهم وبين العرب في الجاهلية، فقال: «... ثم إنه لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا منكم، كنتم أهل معيشة سيئة، لا نراكم شيئًا ولا نعدّكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السَّنة، استغثتم بناحية أرضنا، فنأمر

(١) نفسه (ص٣٩٧).

(٢) د. طه حسين، «مرآة الإسلام»، (ص١٢٢- ١٢٣). وهذا هو التنوير الحق، لا الزائف الذي خدع المستغربين منا! ط دار المعارف، ١٩٥٩م.

لكم بالشيء من التمر والشعير، ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكُسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر، وبثوبين، وتنصرفون عنا، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم.

فتكلم المغيرة بن شعبة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن الله خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئًا فإنما يصنعه، والذي له، وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء، والتمكن في البلاد، وعظم سلطان الدنيا- فنحن نعرفه، ولسنا ننكره، فالله صنعه بكم، ووضعه فيكم، وهو له دونكم. وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف الأسباب- فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله ابتلانا بذلك وصيرنا إليه، والدنيا دُول، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليها، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر، كان شكركم يقصر عما أوتيتم، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال[1]. ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر، كان عظيم ما تتابع علينا مستجلبًا من الله رحمة يرفّه بها عنا، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه... أوَليس مما كنتم تعرفوننا به: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعث فينا رسولًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟...»، ثم انتهى إلى قوله: «وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكن لنا عبدًا تؤدي لنا الجزية عن يد وأنت صاغر، وإلا فالسيف إن أبيتَ؛ فاستشاط غضبًا، ثم حلف بالشمس: لا يرتفع لكم الصبح غدًا حتى أقتلكم جميعًا».

وكان المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند بدء المقابلة يمشي حتى جلس على سرير رستم ووسادته، فوثبوا إليه وأنزلوه بعد ضربه ضربًا خفيفًا، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أدري

(١) «فصول مختارة من كتب التاريخ»، (ص١٦١)، تأليف د. طه حسين- عبد السلام هارون- علي البجاوي- إبراهيم الإبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٥٨م. والمصدر: تاريخ الطبري.

قومًا أسفه منكم، وإنا معشرَ العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضًا، إلا أن يكون محاربًا لصاحبه؛ فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى! وكان أحسن من الذي صنعتم: أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم، فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن دعوتموني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وإن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول»(١).

ولما علم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنصر قام في الناس فقرأ عليهم سورة الفتح، وقال: «إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها، ولست معلمكم إلا بالعمل، إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم، وإنما أنا عبد الله، عرض عليّ الأمانة»(٢).

وتعليقًا على هذا النص يقول الدكتور طه حسين: «وإذا كان النجاح قد أتيح لعمر -لما آتاه الله من عبقرية- فهو كذلك قد أتيح لقواده الذين فتحوا الأرض... وأتيح هذا النجاح أيضًا للجند الذين قهروا أعظم دولتين في الأرض حينذاك: دولة الفرس، ودولة الروم، وهم لم يعرفوا قط من شؤون الحرب إلا ما كانوا يألفون من هذه الحرب الأولية التي كانت تثار بين القبائل، لم يعرفوا الجيوش الضخمة، ولا أداة الحرب التي ابتكرتها الحضارة، ولا حصار المدن، ولا اقتحامها، وهم مع ذلك قد انتصروا أي انتصار، ونشروا لواء الإسلام في أقطار الأرض شرقًا وغربًا، وأزالوا من الأرض دولة عظيمة لم تستطع جيوش روما ولا جيوش قسطنطينية أن تزعزعها، وهي دولة الفرس الساسانيين... كيف

(١) نفسه (ص١٥٩- ١٦١)، باختصار.
(٢) نفسه (ص١٦٥).

جاهد الجند فأمعنوا في الجهاد؟ وكيف صبروا فأبلغوا في الصبر؟ وكيف جنوا نتيجة هذا كله نصرًا مؤزرًا؟ وما أشك في أن القرآن هو المؤثر الأول في هذا كله»[١].

وفي موضع آخر من كتابه «مرآة الإسلام» يحدثنا عن تأثير القرآن في تغيير التاريخ، وتحويله أمة جاهلة غافلة أمية شديدة التنافر والتدابر، يضرب بعضها رقاب بعض، وينهب بعضها أموال بعض، فإذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقًا جديدًا، فألفت النظام والأمن والعدل، وطمحت إلى الرقي، وظفرت منه بحظ موفور، ونشرت هذه الخصال كلها في أمم كثيرة في الأرض، ثم مزجتها، وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر و(ترقية الحضارة). لا أذكر هذا كله ولا أطيل فيه؛ لأنه أظهر من أن يحتاج إلى ذلك، والقرآن وحده مصدر هذا كله، فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها، ولَطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة فاستذلها واستغلها وبسط عليها سلطانه[٢].

وقد ألفت كتب قديمة وحديثة في إعجاز القرآن، ولكنها -على كثرتها- لم تقُل في إعجازه كل ما يمكن أن يقال؛ لأنه أروع روعة، وأبهر جمالًا من أن يُستنفد فيه القول![٣]

أنشكّ -بعد كل هذا السرد والتحليل والتعليل- أن القرآن الكريم هو الذي جعل العرب يؤسسون حضارة إسلامية زاهرة ليس لها شبيه بين الحضارات قديمها وحديثها؟!

---

(١) د. طه حسين، «مرآة الإسلام»، (ص٢٤٧- ٢٤٨).

(٢) نفسه (ص١٥٣).

(٣) نفسه.

فصل

منهج الدكتور محمد عبد الله دراز في عرضه لطريقة القرآن الكريم في إثبات ربانية مصدره

منهج الدكتور دراز في عرضه لطريقة القرآن الكريم في إثبات ربانية مصدره:

أشرنا سابقًا إلى كتاب «الوحي المحمدي» للشيخ رضا، الذي أبطل به ترهات المستشرقين، ونضيف إليه كتاب «مدخل إلى القرآن الكريم» للدكتور محمد عبد الله دراز، الذي كرس فيه -بالجزء الثالث- التدليل على ربانية مصدر القرآن الكريم، وهذا الكتاب يمثل إحدى رسالتين باللغة الفرنسية نوقشتا في ديسمبر ١٩٤٧م بجامعة باريس، وبهما نال المؤلف درجة الدكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف الأولى.

ومما قاله الدكتور السيد محمد بدوي في تقديمه للكتاب: «ومما يزيد في قوة الحجج والأسانيد التي يوردها الباحث الجليل: أنه لم يكتف في مناقشته لنقاط البحث المختلفة بالرجوع إلى نصوص القرآن الكريم، أو إلى ما أثر عن السلف الصالح وعلماء الفقه، بل إنه كان -وفقًا لطريقته في التعمق- يجهد عقله لكي يتصور ما قد يمكن أن يوجه من اعتراضات على ما يقدمه من حقائق، ويقلب كل مسألة من المسائل على وجوهها المختلفة: المحتملة منها، وغير المحتملة، ويورد ما جاء بشأنها في كتب المستشرقين والفلاسفة والمفكرين الغربيين، ثم يرد عليهم بحجج عقلية من نوع حججهم؛ فيكون في ذلك أبلغ الرد عليهم، وخير وسيلة لهدم دعاواهم»[1].

---

(١) (ص١٣) من كتاب «مدخل إلى القرآن الكريم- عرض تاريخي، وتحليل مقارن»، تأليف: الدكتور محمد عبد الله دراز، ترجمة: الأستاذ محمد عبد العظيم، مراجعة: الدكتور السيد بدوي، أستاذ علم =

فِقرات مختارة من الكتاب:

إننا نخشى أن نخل بمضمون الكتاب لو قمنا بعرض بعض فصوله؛ إذ إنه في جوهره كالسبيكة الذهبية البالغة الروعة والجمال ودقة الصناعة، إذ نخشى لو اقتطعنا منها بعض أجزائها أن تفقد رونقها؛ لذلك سنكتفي باختيار بعض الفِقرات الواردة بالخاتمة، وبخاصة عناية الدكتور دراز بإثبات سلامة بدن الرسول ﷺ وعقله، إذ أتى بشهادة (رنان) حيث وصفه بأنه «لم يخلق عقل قط بمثل صفائه، ولم يوجد إنسان قط تحكم مثله في فكره». ولكي ينفي بأدلة قطعية الثبوتِ تخرصاتِ (جولد سيهر) بأن ما حدث له «ظاهرة مرضية تنتاب ذوي القدرات الخارقة وحدهم»![1]

= الاجتماع بكلية الآداب- جامعة الإسكندرية، دار القرآن الكريم، الكويت- دار القلم، الكويت، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.

(١) (ص١٧٣)، وهو مستشرق يهودي معاصر، ومن دأبه: ترديد الأباطيل المستهلكة نفسها، التي كان يصد بها أعداء النبي ﷺ رسالته أيام البعثة. ينظر كتاب «التحديات الفكرية في صدر النبوة» للدكتور أحمد عطية، كتاب المجلة العربية، صفر ١٤٤٣هـ- سبتمبر ٢٠٢١م.

ونكتفي بصورة واحدة من صور التحديات الفكرية في فترة صدر الإسلام التي عرضها المؤلف الفاضل، هي الصورة الخامسة، حيث قال: «إن قضية التربص بالإسلام وأهله ما زالت مستمرة، وهي في استمرارها هذا تُمثل امتدادًا لما كانت عليه تلك العداوة في صدر الإسلام وبعده، والفرق بينهما أن الآليات قد تطورت لتناسب مرور السنين والأعوام. ومن أكبر الآليات التي يمكن من خلالها التصدي لتلك الهجمات الفكرية: هي دراسة التاريخ والسيرة النبوية، وفهمهما فهمًا جيدًا يتناسب وقضايا العصر».

كذلك يوجهنا الدكتور أحمد عطية إلى سورة (ص)، إذ تبين له من الدراسة أن القرآن الكريم أورد هذه التحديات الفكرية بتلك السورة، بطريقة رائعة ومعجزة في الوقت نفسه. (ص٩٦).

ومع تأكيده لاستمرار حرب الإسلام ورسوله ﷺ، يرى أن الحرب الفكرية هي أشد فتكًا من الحرب بالسلاح... كما عُني بدور اليهود في الحرب الفكرية، حيث استعانت بهم قُريش. وخصص بحثًا لهذا الغرض بعنوان «سؤالات اليهود»، (ص٨٤). =

وكان مدخل الدكتور دراز هو مراجعة هذا الفرض، والموازنة بينه وبين البرهان على «أن صوت الحق ذاته هو الذي يلهمه، ولتحقيق هذا الغرض علينا أن نراجع محتوى تعاليمه، ومضمونها»، ثم قدم ثلاث عينات[1]، وإليك ثلاثَ عينات:

١- حقائق دينية وأخلاقية وتاريخية:

عندما نعقد مقارنة بين التوراة والقرآن، من صفات الله والملائكة والأنبياء وما وراء الكون... إلخ، فإنه عندما يشترك هذان الكتابان في الحديث عن موضوع واحد، فإن النص القرآني تميز -في الغالب- باتزانه واتجاهه نحو استخلاص العبر والدروس من كل عرض. ولقد كتب (جول دافيد) في مقال معنون «توافقات واختلافات بين القَصص الديني في التوراة والقرآن»، يقول: «إن الجوهر واحد، والاختلاف ليس إلا في الشكل، وفي تفاصيل طفيفة للغاية».

وما يتبع للتوفيق والتدرج بين الأناجيل الأربعة ينبغي دراسة الوصايا الدينية التي تركها لنا جميع رسل الله، فرغم المسافة الشاسعة التي تفصل بينهم من حيث الزمانُ والمكان، ورغم اختلاف الأجناس واللغات، فقد مروا بنفس التجربة، وهي الاتصال

= هذا وقد سبق للشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ التصدي للمستشرق اليهودي عندما أثار الشكوك في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بكلمات جوفاء، لا طائل تحتها)... وقد أفاض في شرح القواعد التي وضعها علماء الحديث وحققوها بأقصى ما في الوسع الإنساني؛ احتياطًا لدينهم، ونفيًا للخطأ عن سنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... ثم تساءل بعد ذلك باستنكار: «أفبعد هذا العمل الضخم والإنتاج الهائل العظيم يأتي أولئك المستشرقون ليسحروا أعين الناس، ويضعوا الغشاء على أبصارهم؟!».
المصدر: «جمهرة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، مع أهم تعقبات الشيخ على «دائرة المعارف الإسلامية»، ج٢، (ص٧٥٠- ٧٥٤، ٧٥٥)، جمع: عبد الرحمن العقيل، دار الرياض، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(١) نفسه (ص١٧٤).

بعالم الغيب. وإنّ تطابق أقوالهم في جوهر تعاليمهم ينبغي أن يفتح أعين الغافلين على صدقهم وصحة مبادئهم التي تناولت بالوصف الحقائق العليا من زوايا مختلفة.

ويقول الدكتور دراز: «ومع هذا التطابق المدهش لاحظنا من بحثنا استقلالًا في لهجة القرآن وفي طريقته في عرض الدروس والمواعظ القرآنية، واستخراج التي تلزمه في كل مناسبة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٥].

٢-حقائق علمية:

ولكن القرآن -في دعوته إلى الإيمان والفضيلة- لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة، لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب، وإنما تذكر بالخالق الحكيم القدير، ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق تمامًا مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث؛ مثل: المنبع الخفي الذي يخرج منه العنصر الجنسي للإنسان، والمراحل التي يمر بها الإنسان وهو في بطن أمه، وعدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها، والمنشأ المائي لجميع المخلوقات الحية، وتكوين المطر، ودائرية السماء والأرض، وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب، ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة، وتعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية، ووصف حياة النحل بصفة خاصة، وثنائية النباتات والمخلوقات الأخرى -وهي حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والتلقيح بواسطة الرياح... إلخ.

وبعد ذكر الآيات القرآنية المتصلة بهذه القضايا، تساءل الدكتور دراز قائلًا: «هل يمكن في عصر الجاهلية أن يتعرض رجل مجرد من أية معدات فنية، ويعتمد على علمه

الطبيعي الخاص، وعلى مشاهداته المحدودة -بالإضافة إلى ما اشتمل عليه كتابه من حلول في الأخلاق والدين والاجتماع- لعلوم التشريح، والأرصاد الجوية والكونية والنفسية للحيوان والإنسان، وفروع أخرى كثيرة، تتطلب إمكانيات فنية دقيقة، وتجارب جماعية متكاملة، وأن يعطينا في كل موضوع حقائق عالمية خالدة، من غير أن يترك في أي مجال أثرًا -ولو طفيفًا- ينم عن عصره أو بيئته، أو حتى خياله الشخصي؟»[1].

٣- تنبؤات المستقبل:

وبالإضافة إلى هذه الحقائق المقررة، أعلن القرآن عن أحداث ستتم فيما بعد، رأيناها تقع كما كان متوقعًا بالضبط. وهكذا تنبأ القرآن بالمواقف الثلاثة لمعارضيه -في البداية موقف المخالف، ثم موقف الميال للتوفيق، وأخيرًا المعادي- وبتتابع مراحل مصائرهم على التوالي بحسب كل موقف، مجاعة، ورخاء، وهزيمة (قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان:١٠-١٦]، وأعلن عن الهزيمة التي منيت بها قريش ببدر في العام الثاني الهجري، وذلك قبل الهجرة بسنوات عديدة، على أنها ستقع في نفس الوقت الذي ينهزم فيه الفرس من الرومان (قال تعالى: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٣-٥])[2].

وحادثة أخرى عجيبة وقعت في هذه المعركة، وكان القرآن قد تنبأ بها في بداية

---

(١) نفسه (ص١٧٧).

(٢) نفسه (ص١٧٧ - ١٧٨).

الإسلام، هي ضربة السيف التي تلقاها شخص يدعى (الوليد بن المغيرة) على أنفه، وتركت عليه علامة أثارت سخرية قومه منه مدى حياته، قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٦]. ولا حاجة إلى ذكر الظروف المخيبة للآمال، والتي أعلن القرآن -بالرغم منها- انتصاره القريب على أعدائه، فضلًا عن خلود دعوته على مر الزمان (قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧]، بل وقيام دولة الإسلام الفتية على الأرض (قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥]، وعجز كل قوى الأرض عن القضاء عليها (قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦])[١].[٢]

وفي تعليق الدكتور دراز على (لامنز) الذي عبر عن أسفه بأن القرآن الكريم لم يقدم معلومات توصف بها بلاد العرب، بينما أطال تأملاته أمام النجوم والجبال والسحاب والمظاهر الأخرى الذي يصفها بالعجائب... في تعليقه يقول: «وهنا يكمن -في رأينا- الدليل على أن القرآن ليس إنتاجًا محليًّا؛ لأن الحقائق التي يقدمها هي من النوع الذي يسهل على جميع العقول إدراكه، واستخلاص الفائدة الأخلاقية منه؛ ولهذا نرى مكانه سامقًا فوق كل الاعتبارات الجغرافية والعنصرية وغيرها، ولهذا أيضًا لا يذكر عمومًا

(١) والحرب الصليبية على أفغانستان عام ٢٠٠١م التي دامت عشرين عامًا حتى عام ٢٠٢١م، وانتهت بهزيمة الولايات المتحدة، بعد أن أنفقت عليها مليارات الدولارات، قدرها البعض بنحو (ثمانين مليار دولار)! هذه الحرب تعيد إلى ذاكرتنا الآية الكريمة، فتزيد إيماننا، والحمد لله رب العالمين.

(٢) نفسه (ص١٧٨).

الأشخاص والأماكن التي يتحدث عنها، ولا يركز إلا على العبر والدروس التي تفيد في تربية الإنسانية. إن هذا المنهج المتكامل الذي ينفرد به القرآن وحده هو في ذاته برهان، وأي برهان! لقد انتشرت الدعوة القرآنية في البداية في الجزيرة العربية بين العرب، ولكن غايتها هي أفراد البشرية أجمعون، وقال تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف:١٠٤]»[1].

---

(١) نفسه (ص١٨٠ - ١٨١).

فصل

عصر الرسالة النبوية هو عصر التنوير الحق

ضخ (التنويريون) المعاصرون في الغرب ومقلدوهم ببلادنا كمًّا هائلًا من البحوث والمؤلفات[1]، ولمطالبتنا نحن أيضًا بتقليد عصر التنوير في أوروبا، فوقعوا في خطأ منهجي -ودون وعي- إذ إن مدلول (التنوير) وفق السياق الحضاري الأوروبي مخالف تمامًا لتاريخ الأمة الإسلامية، كما سنوضح بالصفحات الآتية بإيجاز:

إن ما يستحق أن يطلق عليه (عصر النور) بحق هو عصر الرسالة؛ لأنها أنارت البشرية، وهدتها إلى الصحيح من العقائد، بعد الحيرة والضياع والضلال.

أجل، لقد أضاء الوحي العالم بنوره الساطع، وحمل المسلمون معهم -حيثما حلوا- عقيدة التوحيد، ففرت أمامهم خفافيش الظلام من حاملي الوثنيات، وكانت شعوب العالم حينذاك موزعة بين عقائد باطلة، أصلها من السماء، ولكن حرفت بواسطة رجال الدين من اليهود والنصارى، أو أفكار فلسفية تحتوي على الباطل أكثر مما تحتوي على الحق. زد على ذلك عبادة الشيطان، وما زينه من معبودات شتى، كالنجوم والكواكب والأصنام والنيران والأحجار والأشجار.

وكانت المسيحية السائدة هي مسيحية (بولس) التي ضمت مزيجًا من الخرافات

(١) ولا يكاد القارئ يخرج بفائدة؛ لأنها إما أعمال مترجمة من نصوص أجنبية، أو أنها تشغلك بمعلومات مكررة عن الحضارة والتاريخ والفلسفة... إلخ.
ولكنك عندما تبحث -بعد القراءة- في عقلك وقلبك عن علم نافع أو إرشاد لعمل صالح، أو تزكية نفس، أو زيادة إيمان، أو فائدة علمية، أو غير ذلك من ثمرات القراءة الجادة المثمرة، فلا تجد!

اليونانية، والوثنية الرومانية، والرهبانية، اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ البسيطة، كما تتلاشى القطرة في اليم[١].

وتضمنت كتب اليهود الكثير مما لا يليق وصف الله تعالى به، فنسبوا إليه عَزَّ وَجَلَّ صفات التجسيد والتشبيه، كنصّيْ سفر التكوين عن الراحة بعد خلق السماوات والأرض، والندم -والعياذ بالله- على خلق الإنسان، وغيره. وجاء القرآن الكريم بتصحيح مثل هذه الأباطيل، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠])[٢].

أما عقائد اليونان في الإله عندهم، فإنهم صاغوا صفات الله وقدرته في شكل آلهة شتى، نحتوا لها تماثيل، وبنوا لها معابد وهياكل، فللرزق إله، وللرحمة إله، وللقهر إله، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادي، ونسجوا حولها نسائج من أساطير، فللحب إله، وللجمال إله. وكان اليونان يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء[٣].

ونرى -من متابعتنا لبعض الكتابات المعاصرة عن تاريخنا العقائدي- أنها حذت حذو كتّاب الغرب الخاضعين لفكرة التطور، فنظروا إلى تاريخهم بهذا المنظار.

ولكن ما ينبغي التوقف عنده وبحثه هو أن لكل أمة تاريخَها الخاص، الذي يسجل تجاربها الخاصة، ولا يصح إخضاع غيرها من الأمم لنفس التجارب التي خاضتها تلك

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» للإمام الندوي، (ص٢٨)، ط مكتبة الدعوة الإسلامية بمصر، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.

(٢) «الإسلام والأديان الأخرى»، لواء أحمد عبد الوهاب، (ص٥٦)، ط مكتبة التراث الإسلامي بمصر، سنة ١٩٩٢م.

(٣) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، (ص١٥٨- ١٥٩).

الأمة. وربما كان محور التاريخ في الغرب يدور حول المنجزات العلمية، لا سيما منذ عصر النهضة، حيث نبذوا هناك سلطان الكنيسة، ونفروا -في مرحلة تاريخية من تاريخهم- من العقيدة الدينية، بتأثير الكتّاب اللادينيين، وصار التقدم -في عُرفهم- قاصرًا على التقدم العلمي التقني، بعيدًا عن المعنويات، كالعقائد والأخلاق.

ولكن تفسير تاريخنا العقدي مغاير لهذا التصور مغايرة تامة، وإذا صح قول (كبلنج) بأن «الشرق شرق، والغرب غرب»، فإنه أكثر ما يكون صحيحًا عندما نعرف تاريخنا العقدي، وهو في حقيقته أيضًا يعبر عن مراحل حضارتنا، سواء عند ازدهارها أو عند تدهورها.

ويرجع ذلك في رأينا إلى العوامل الآتية:

١- أن العقيدة الإسلامية هي حجر الزاوية في كِياننا الذاتي، وبنائنا الحضاري، فهي التي تذكر الأمة بالأمانة المنوطة بها، وتحفزها على الارتقاء إلى مستواها اللائق بها، وتحدد لها غايتها القصوى وهدفها الأسمى؛ لكي لا تختلط مع أهداف غيرها من الأمم والحضارات التي ترفع شعارات اقتصادية وسياسية واجتماعية، وتلهي البشرية بغايات مادية، على حساب القيم والغايات النبيلة. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

٢- أنها بمثابة الدرع الواقي الذي كفل لها -وما زال يكفل- الصمود في وجه كل ما لاقته وتُلاقيه من تحديات وغزوات عسكرية وثقافية، بشتى صنوفها ودروبها.

٣- أنها تعطي الحياة معنًى وسط الحيرة والقلق ومظاهر الضياع الذي تشكو منه

الأمم الأخرى؛ لأنها العقيدة التي تضع الإجابات الحاسمة للأسئلة التي تدور في أذهان بني آدمَ جميعًا: لم يخلقنا؟ وممَ خلقنا؟ وإلى أين المصير؟

٤- حرص الأمة الشديد على المحافظة على الوحي الإلهي، وهو أصل دينها الذي تتميز به عن سائر الأمم، «والدين إنما هو كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة القوية المعروفة، يصدق بعضها بعضًا، حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين، وتابعي التابعين، ومن بعدهم من الأئمة المعروفين، المقتدى بهم، المتمسكين بالسنة، والمتعلقين بالآثار، ولا يعرفون ببدعة، ولا يطعن فيهم بكذب، ولا يرمون بخلاف»[1].

٥- أن استخدام لفظ (التقدم) لا يصح ولا يعبر عن مدلوله إلا في وصف المنجزات العلمية في حقول التجربة وتحسين الوسائل، أما في مجال المعنويات، كالعقائد والقيم والفكر، فهو تعبيرَ بلا مضمون؛ ففي القيم إطلاق ونسبية، وصحة وخطأ، وثبات وتغير... وهكذا.

٦- ظلت العلاقة في الإسلام متناغمة بين الدين -حسب التعريف الآنف- وبين التطبيق النموذجي في عصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة، ثم بدأ الانحدار التدريجي، مع بقاء الأنموذج والمثال. وفي كل مرة تتدهور الأحوال، يتطلع المسلمون إلى هذا الأنموذج التطبيقي للحضارة الإسلامية.

لقد ظلت نماذج تجارب العصور المفضلة خارج إطار الزمان والمكان، أي إن التعبير بأنه (رجوع إلى الماضي) تعبير خطأ تمامًا، وغير مطابق لما نحن بصدده؛ لأن التقويم

---

(١) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن القيم، (ص٣٠٥)، دار عمر بن الخطاب- بولكلي- الإسكندرية، دون تاريخ.

الموضوعي يضع الصحابة في الذروة، وهذا ما فعله (كاتياني)؛ إذ وصفهم في إطار موضوعي، فهُم -حسب المواصفات المؤهلة للقيادة على اختلاف الأزمنة والأجيال- يتمتعون بالميزات الآتية:

(أ) كانوا ممثلين صادقين لتراث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الخلقي)، بل العقدي أيضًا، ودعاة الإسلام في المستقبل، وحملة تعاليم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي بلغها أهل التقوى والورع.

(ب) أثبتوا -فيما بعد- في أصعب مناسبات الحروب أن مبادئ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما بُذرت في أخصب أرض، وأنبتت نباتًا حسنًا.

(جـ) من ذوي الكفاءات العالية جدًّا.

(د) كانوا محافظين على كل ما تلقوه من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كلام أو أمر.

(هـ) هم قادة الإسلام السابقون الكرام، الذين أنجبوا فقهاء المجتمع الإسلامي، وعلماءه، ومحدّثيه الأولين[1].

فإن لم يكن هذا هو التنوير الحق، فهل سنجده إذا سرنا وراء سراب تقليد الغرب، وكأن ماضيه أصبح مستقبلنا؟!

دفع شبهة الرجوع إلى الماضي:

وعندما نذكر فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين لهم، مع اتخاذهم روادًا في فهم الإسلام وتطبيقه، سنصطدم برأي البعض الذي يحفظ تاريخ أوروبا عن ظهر قلب، ويردد الفكرة المكررة عن (الرجوع) إلى الماضي، أو حسب اصطلاح مؤرخي الغرب: (العصور الوسطى المظلمة).

(١) من كتاب «سنين الإسلام» لكاتياني، نقلًا عن «الإسلام: أثره، وفضله على الحضارة الإنسانية» للإمام الندوي، (ص٩٨- ٩٩)، ط دار الصحوة، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

وأول ما نواجه به هذه المقولة: أن توهم ميدان التاريخ هو الماضي وحده، أو حكاية ما انقضى وفات وطواه الزمان في سيره الآن من الأحداث- ليس بصحيح؛ لأننا إذا قلنا: إن التاريخ هو نهر الحياة، فإن هذا النهر متصل السير: قبلنا، وفي زماننا، وبعد زماننا، وإذا قلنا: إننا عندما نكتب التاريخ، فمعنى ذلك أننا نسجل التجربة الإنسانية، فإن هذه التجربة ما زالت سائرة متصلة الحلَقات[1].

وتجربة الأمة الإسلامية سجلت نجاحها الباهر في عصورها المفضلة الأولى، وها هو (أرنولد توينبي) -أشهر المؤرخين المعاصرين، وأبعدهم أثرًا في الفكر الفلسفي التاريخي- اجتهد في أن يتحقق مما إذا كان للتاريخ مسار معين، أو ما يسمى بـ (ما وراء التاريخ)، «أيِ البحث عن القوى أو العوامل أو المناهج التي تسير التاريخ»[2].

هذا المؤرخ الفيلسوف أقر بحقيقة الازدهار الحضاري في عصر الرسول ﷺ وصحابته، ثم تكررت الظاهرة أثناء الحروب الصليبية وهجمات التتار، مؤكدًا قابلية الازدهار إلى التحقيق، فيما لو استيقظ المسلمون من سباتهم، أي إنه أيقن أن الإسلام هو القوة التي تحرك تاريخهم، ويرى أن التاريخ الإسلامي بمجموعه «تجربة واحدة، خلاصتها هي الحضارة الإسلامية»[3].

إذن إننا لا نرجع إلى الماضي، ولكن نود الإفادة من تجارب التاريخ.

ونضيف أن تاريخنا لا يعرف بما يسمى بـ (العصور الوسطى) بظلاله المعروفة عن تاريخ أوروبا، ودعوتنا في حقيقتها إنما «هي عودة ضرورية إلى الينابيع النقية للإسلام

---

(١) (ص٢٤) من كتاب «التاريخ والمؤرخون»، د. حسين مؤنس، ط دار المعارف، ١٩٨٤م.
(٢) نفسه (ص١٧٠).
(٣) نفسه (ص١٧٧).

لكي (نطبق) مبادئه الأصيلة التي ترسم وجهه الحقيقي... ولتنقيه من التشويهات التي نزلت به عن طريق المنحرفين، والتي كانت هي السبب في تقهقر العالم الإسلامي»[(١)].

أما القائل بأن (طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أحكم) فإنه ظن أن طريقة السلف (مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه في ذلك، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المعروفة عن حقائقها بأنواع المجازات)؛ وهذا غير صحيح؛ لأن السلف في غاية المعرفة بما يليق بالله تعالى، «وفي غاية التعظيم له، والخضوع لأمره، والتسليم لمراده، وليس من سلك طريق الخلف واثقًا بأن الذي يتأوله هو المراد، ولا يمكنه القطع بصحة تأويله»[(٢)].

ويذكر أبو المظفر ابن السمعاني أنه صح عن السلف استحباب الاشتغال بمعرفة الأحكام في المعاملات؛ لأن الحوادث فيها لا تنقضي، بخلاف (علم الكلام)، كذلك فإن الدين كُمل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فإذا كان أكمله وأتمه «وتلقاه الصحابة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتقده من تلقى عنهم، واطمأنت به نفوسهم، فأي حاجة بهم إلى تحكيم العقول، والرجوع إلى قضاياها، وجعلها أصلًا، والنصوص الصريحة تُعرض عليها، فتارة يُعمل بمضمونها، وتارة تُحرف عن مواضعها لتوافق العقول؟!»[(٣)].

---

(١) «دراسات معاصرة عن الإسلام والمسلمين» للدكتور محمد غلاب، (ص١٤٣)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ذو الحِجة سنة ١٣٨٨هـ- مارس سنة ١٩٦٩م.

(٢) «عقيدة التوحيد في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»»، (ص١٢٢)، دراسة تحليلة شاملة لعقيدة الحافظ كما بسطها في «الفتح»، إعداد: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٣) نفسه (ص١٢٣).

ويضيف ابن السمعاني أن العقل لا يوجب شيئًا ولا يحرم شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، فمن زعم أن دعوة رسل الله -عليهم الصلاة والسلام- لبيان الفروع، لزمَهُ أن يجعل العقل هو الداعي إلى الله، دُونَ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...

ثم يستطرد قائلًا: «ونحن لا ننكر أن العقل يرشد إلى التوحيد، وإنما ننكر أن يستقل بإيجاب ذلك، حتى لا يصح إسلام إلا بطريقه، مع قطع النظر عن السمعيات... بل يجب الإيمان بما ثبت من السمعيات، فإنْ عقلناه فبتوفيق الله، وإلا اكتفينا باعتقاد حقيقته على وفق مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»(١).

وعلى هذا الوجه -كما يرى البيهقي- فإن الاستدلال بمعجزات الرسالة أصل في وجوب قبول ما دعا إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودليل ذلك: قصة النجاشي، وقول جعفر ابن أبي طالب له: «بعث الله إلينا رسولًا نعرف صدقه، فدعانا إلى الله، وتلا علينا تنزيلًا من الله، لا يشبهه شيء، فصدقناه، وعرفنا أن الذي جاء به الحق»(٢).

معالم عصر التنوير الإسلامي:

إذا عرضنا لمعالم العصر الذهبي للإسلام سيتضح أنه هو عصر التنوير الحق، لا الغربي الزائف؛ حيث سطعت شمس الرسالة، وأضيء بنور النبوة، وتحققت فيه حياة إنسانية لم تر لها البشرية مثيلًا، لا من قبل ولا من بعد، وإذا كنا مطالبين بتحقيق هذا النمط من الحياة فليس معناه -كما يتوهم البعض-: (الرجوع إلى الماضي)، بل الارتقاء إلى مرتبة المسلمين الأولين، الذين بذلوا أرواحهم في مرضاة رب العالمين.

---

(١) نفسه (ص١٢٤).

(٢) نفسه (ص١٢٤).

ويرى الدكتور المؤرخ حسين مؤنس أن الإنسان بطبعه تاريخي، أي يميل إلى معرفة الماضي، والربط بينه وبين الحاضر، وذلك جانب من تطلع الإنسان إلى المعرفة، والمعرفة من شأنها أن تعطي الإنسان أمانًا في سيرته في الحياة، وثقة في نفسه، وأن علم التاريخ لم يعد (علم الماضي)؛ لأن الماضي نفسه -كمفهوم بذاته- قد انتهى، وأصبح الزمان -لهذا كله- بلا فواصل[(١)].

وهذا المفهوم لمعنى التاريخ ينطبق بحذافيره على تاريخ المسلمين، الذي يسجل الرباط الوثيق بين تنفيذ قواعد الشريعة، وفهم الإسلام الصحيح من مصدريه -الكتاب، والسنة-، والعمل بهما، وبين عصور حضارة الإسلام في ازدهارها وتألقها، بين النصر والظهور العالمي للمسلمين.

ولا تخطئ عين الباحث المدقق في كتب التاريخ ملاحظةَ ما حققه المسلمون في عصر النبي ﷺ بقيادته، ثم الصحابة والتابعون، ففي العصور الأولى عندما كان الصحابة والتابعون يسيرون على طريق الشريعة بفهم ووعي، انتصروا في الغزوات، وقهروا الأعداء، وحققوا نمطًا إنسانيًّا للحياة لم تر اليابسة مثله في كافة دروب الأنشطة الإنسانية. يقول الإمام أحمد بن حنبل: «إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة، أو في نظيرها؛ فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام، حدثت جميع أجناس الأعمال، فتكلموا فيها بالكتاب والسنة، أي وجدوا الحلو منهما تطبيقًا لنصوصهما، وإنما تكلم بعضهم -أي استخدم الرأي- في مسائل قليلة»[(٢)].

---

(١) (ص٢١٢- ٢١٦) من كتاب «التاريخ والمؤرخون- دراسة في علم التاريخ»، د. حسين مؤنس، ط دار المعارف، ١٩٨٤م.

(٢) (ص٤٣) من كتاب «معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ﷺ»، لابن تيمية، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة. =

ويقصد بذلك أنهم أرسوا قواعد الحياة الإسلامية الصحيحة كلها، هذه الحياة الكاملة التي تتناول اعتناق العقائد، وأداء العبادات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية السامية، وتطبيق شرائع الإسلام في دائرة كلية، وعاشوا نمطًا فذًا في الحياة في حياتهم اليومية، وخوض المعارك العسكرية، وأداء المعاملات التجارية، وإقامة العلاقات الاجتماعية في الأخوة والصحبة، والزواج والطلاق، والعتاق، والمسرات والأحزان، وهذه المزية ينفرد بها الصحابة دون من جاء بعدهم؛ لأنه ما إن انقضى عصرهم حتى ظهرت بواكير التحول -التدريجي البطيء- عن هذه الحياة المثالية، شأن سنن الحياة في النزول عن القمة بعد بلوغها الذروة. لقد حققوا شُعب الإيمان -حتى في خلافاتهم- بطريقة مذهلة؛ ألا يحق لنا وصف عصرهم بأنه عصر النهضة الإسلامية الصحيحة، وأنه عصر التنوير الحقيقي؟ وقد وصفه الدكتور عبد الرحمن بدوي بأنه كان عصرًا مشرقًا زاهرًا إنسانيًّا عالميًّا[١].

ومن هنا، أصبحت تقاس أطوارنا التاريخية بالنظر إلى اقترابها أو ابتعادها عن المجتمع الإسلامي في الخلافة الراشدة وما حققته الحضارة الإسلامية في هذا الطور العظيم، فإذا تكلمنا عن البيعة والشورى والعدل، وإذا تكلمنا عن المساواة في الحقوق والواجبات بين الناس، وإذا تكلمنا عن الفتوحات ورايات الإسلام الخفاقة المنتشرة في الأرض حينذاك، فلن نجد مصدرًا غنيًّا كاملًا بكل ما تحقق في هذه الميادين، إلا في عصر الخلافة الراشدة والقرون الأولى المفضلة، مع إقرارنا بأنه لا عصمة لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

= و(الجِنس) معناه: الضرب من كل شيء، والجمع: أجناس، وهو أعم من (النوع).
-وينظر كتابنا «التنوير الإسلامي، والتنوير الغربي»، ط دار العربية- الإسكندرية، ٢٠٢٠م.

(١) د. عبد الرحمن بدوي، «دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي»، (ص١٦١)، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٧م.

واجتازت الأمة العقبات تلو العقبات، وابتليت بالشدائد والمحن والحروب في كل مرة تنحرف فيها عن الطريق المستقيم، وكانت أُولى الهزائم في معركة (أحد) عندما عصى الرماة أوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والحديث عن المعارك والحروب يدعونا إلى استعراض أحوال المسلمين أثناء الحروب الصليبية؛ للتعرف على سنة الله عَزَّ وَجَلَّ في تاريخنا الحضاري.

وصف ابن الأثير هذه الكارثة بقوله: «وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد، بصحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلامًا أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أفطروا»[١].

وعندما شاءت حكمة الله تعالى أن يقيض للصليبيين آل زنكي وآل أيوب، بدأ رد فعل الإسلام، وارتد كيد الصليبيين في نحورهم. يقول الشيخ عبد الحميد كشك رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه سنة الله في خلقه، عندما يلجأ المسلمون إلى ربهم، ويعرفون الطريق إلى رضاه، ويأخذون في الأسباب إلى طاعته، لن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تقف في سبيلهم، هذا قانون الله الذي لا يتغير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٧]، وعندما يتفرقون ويختلفون يحل بهم من البلاء، ويسلط الله عليهم من يبعث الرعب في قلوبهم، فلا ينزع إلا إذا عادوا إلى الله»[٢]. وكما تحققت هذه السنة الإلهية آنذاك، نراها متحققة فيما تعانيه الأمة الآن من ويلات الحروب الصليبية المتعانقة مع الصهيونية، والعلل واحدة، وأحوال المسلمين هي هي.

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، نقلًا عن كتاب «خذوا من أحداث التاريخ عبرة» للشيخ عبد الحميد كشك، ط مكتبة الصحافة- العباسية، بالقاهرة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، (ص١٧).

(٢) نفسه (ص١١٩).

دفع شبهة الحجر على العقل:

وتعليل النهي عن الخوض بالرأي في العقائد -كما تقدم- يستند، لا إلى منع استعمال العقل، والحجر عليه -كما يتوهم البعض-، بل إلى ما ينفرد به الإسلام من ميزة خاصة؛ إذ يحتفظ كتابه المنزل بالتوثيق العلمي الصارم، وانتقاله جيلًا بعد جيل بنفس آياته التي أنزلت على الرسول ﷺ، فأصبح عصيًّا على التحريف أو التبديل والتغيير، وتضمن العقائد -أو أصول الدين- ببيان تام عن الله عَزَّوَجَلَّ، والقضاء والقدر، واليوم الآخر، ونحوها من مسائل عالم الغيب، بأدلة وبراهين عقلية شرعية، مقنعة، تبلغ حد الكمال، واستخدام العقل فيها إهدار للجهد[1] والوقت، كما قال جعفر الصادق: «إذا بلغ الكلام إلى الله فأمسكوا»، وقال: «تكلموا فيما دون العرش، ولا تكلموا فيما فوق العرش؛ فإن قومًا تكلموا في الله فتاهوا»[2].

ويصبح مجال استخدام العقل في الفروع مفتوحًا بعد امتلاك أدوات الاجتهاد، كما فعل الفقهاء بحرص شديد، بل كان «بعض العلماء يكره أن يثبت رأيه في الفروع؛ لجواز رجوعه عنه فيما بعد»[3].

ويقسم الإمام ابن عبد البر الرأي إلى قسمين: صحيح، وفاسد، «فالفاسد: ما كان مِنه في أصول الدين، وأما في فروعه فالأمر واسع، والقياس على الأصول حجة ثابتة»[4].

---

(١) «صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام» للإمام السيوطي، ج١، تحقيق: د. علي سامي النشار- د. سعاد عبد الرازق، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة إحياء التراث الإسلامي، الكتاب الأول، ١٣٨٩هـ- ١٩٧٠م.

(٢) نفسه (ص٩٧).

(٣) نفسه (ص١٩٠).

(٤) نفسه (ص١٨٩، ١٩٠).

وقد اعترف أحد المستشرقين بمكانة القرآن الكريم في الصراع المخالفين، فقد أشار إلى ما كتب المفكر (ترتون) في كتابه «علم الكلام الإسلامي»، يؤكد فيه كيف أن القرآن هو الذي مكن المجتمع الإسلامي من الصمود بمواجهة هذه التحديات، وحماية ذاته، وبلورتها في مجرى الصراع الذي كان يحيط بالحياة والعقل الإسلامي يومها. فلقد طرح (ترتون) في فصله ذاك «صورة فذة عن الأفكار التي تنفست عندما دخل الإسلام في صخب العالم الهلنستي -أي اليوناني- ووجد نفسه محفوفًا بجو من الجدل اللاهوتي، وهي أفكار ذات اختلاط وتكثر، وأحيانًا ذات سخف يعز تصديقه؛ فكان السبيل الوحيد الذي يحفظ على المرء توازنه عندئذ ويبقي لديه على نعمة الإيمان- أن يعود إلى القرآن، ويرفض كل بناء عقلي...

وربما لم يتضح لنا وضوحًا حاسمًا مبلغ ما استطاع القرآن أن يؤديه في إمساك العقل الإسلامي وتوجيهه عندئذ، إلا إذا لحظنا أن هيئة الجماعة في تلك الظروف العصيبة لم تهن ولم تتزعزع»[1].

مميزات العقائد الإسلامية:

ففي ضوء قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣] تنبثق عدة مميزات ظاهرة للعقائد الإسلامية، نوجزها فيما يأتي:

١- تبين أن القرآن الكريم -إذا استعرضنا المذاهب والنظريات التي حاول أصحابها تفسير نشأة العقيدة الإلهية- قد احتواها جميعًا، فقد تنوعت في القرآن -كما شرح الدكتور

(١) «دراسات في حضارة الإسلام»، (ص٢٦٦- ٢٦٧)، هاملتون جب، ترجمة: إحسان عباس ورفاقه، دار العلم للملايين، بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين، بيروت، ١٩٦٤م. نقلًا عن كتاب «القرآن الكريم من منظور غربي» للدكتور عماد الدين خليل، دار الفرقان، عمان، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

دراز رَحِمَهُ اللَّهُ وسائل الدعوة إلى الله، «وصرفت فيه الآيات تصريفًا بليغًا، حتى أن الذي يستعرض أساليب الهداية القرآنية -أي عقيدة الألوهية- يجدها قد أحاطت بأطراف هذه المسالك، وأشبعت تلك النزعات جميعًا، بل ربما زادت في كل منهج عناصر جديدة، لم يفطن إليها الباحثون، (ويقصد بذلك المذاهب الكونية أو الطبيعية والروحية والنفسية، والمذهب الأخلاقي، والمذهب الاجتماعي، والمذهب التعليمي، أو مذهب الوحي)»(١).

٢- أن استبدال الأيدولوجيات في العالم الغربي بالنصرانية- دل على أنها لم تكفِ لتنظم الحياة -بشعبها الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية- فحاول الفلاسفة ملء الفراغ بالأيدولوجيات، ولكنها أيضًا ثبت فشلها، وها هي تنزوي بعيدًا في زوايا النسيان، لتعود الشعوب وتتطلع إلى إشباع نهمها للدِّين. هذه التجربة -التي استغرقت أعوامًا طِوالًا، وكان ضحيتها أجيال تلو الأجيال- لم تظهر مأساتها في ظل الحضارة الإسلامية؛ لأن الإسلام -بميزان الدين الكامل- يغذي حياة بني آدم في كافة أنشطتهم وحركاتهم وتطلعاتهم في الحياة(٢).

٣- تساقطت النزعة التطورية في افتراضات (دوركيم) و(أوجست كونت)، وثبت الدين مصدره الوحي، وكانت البشرية موحدة بفطرتها، وأن مصدر الشرك ومظاهر الوثنية تأتي من شياطين الإنس والجن.

---

(١) ينظر كتاب «الدين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان»، (ص١٠٩، وما بعدها)، ط دار الفكر العربي، ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م.

(٢) تقول الفتاة الألمانية (باتينا) المهتدية للإسلام: وكنت أشعر دائمًا، وأنا أمارس حياتي الكنسية هذه، أنه ما زالت هناك رغبات نفسية لم تأت بها الممارسات الكنسية، لقد كنت أسعى دائمًا إلى البحث عن الكمال الذي يشبع كل رغباتي النفسية. مجلة «المسلمون»، العدد ٢٩٨، أول ربيع الآخِر ١٤١١هـ- ١٩ أكتوبر ١٩٩٠م.

فإذا استخدمنا المناهج العلمية في النفس والتاريخ والتطور الصحيح، سيتضح أنها كلها تدعم أولوية عقيدة التوحيد.

٤- أن الدين المحرف العقائد -والذي تنقصه المصادر الموثقة- ينسحب أمام التطورات العلمية واكتشافات العلماء في الآفاق والأنفس. ينظر على سبيل المثال: كتاب «التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء العلم»، موريس بوكاي، وكتاب «الإنسان، ذلك المجهول»، ألكسس كارليل.

أضف إلى ذلك أن الفلسفة المادية كشفت عن ضيق أفقها، حيث تهافتت أمام العلم الذي برهن على أن الوجود أضخم وأعظم بكثير من هذا الوجود المادي المنظور المحسوس الذي انحصر بداخله خيال الفلاسفة الماديين، بل إن وسائل الإدراك الإنساني قاصرة عن الإحاطة بعوالم الوجود؛ فلا بد إذن من مصدر آخر أكمل للتعريف به، ألا وهو الوحي.

ويرجع عدم الاعتراف بما وراء المادة إلى الفلسفة المادية في تاريخ الغرب، حيث رفض أصحابها غير الملموس، وغير المنظور.

ولكن ظهر أقوى اعتراض على هذه الفلسفة المادية في اتجاهين:

الأول: الفيلسوف الألماني (كانط) الذي ثار على معاصريه من الفلاسفة؛ لموقفهم السلبي، وانجرافهم في فلسفة الجماهير العقلية التي تخشى كل ما هو غريب وغير قابل للتفسير، منوهًا بأن الفلسفة تجد نفسها أحيانًا مرتبكة تجاه أمور لا يمكنها دحضُها، كما لا يمكنها تصديقُها.

الثاني: مع توالي خطوات التقدم العلمي واكتشافات العلماء في العالم المادي، ومنهم: (أينشتاين)، حيث أثبت بنظريته النسبية أن المادة والطاقة هما عنصران يختلف

كل منهما عن الآخر، وأن المادة يمكن تفجيرها. وقد وجهت هذه الاكتشافات ضربة قاضية إلى الافتراضات والأفكار التي تنسب كل شيء إلى المادة، كما بينت أن عالمنا المادي -كما نعرفه ونشعر به بحواسّنا الخمس- يخفي خلفه عالمًا آخر، لم نتمكن بعد من معرفة أوصافه، وفي هذا العالم غير المادي لا وجود للقواعد السائدة في عالمنا، كما لا حساب فيه للأوقات والمسافات ولمبدأ السببية.

ومن هنا، لجأ البعض في الغرب إلى محاولة اكتشاف هذا العالم، فظهر بما يسمى بانتقال الأفكار (التلباثي Telepathie)، والتنويم المغناطيسي، وتحضير الأرواح، ومحاولة دراسة الظواهر الخارقة باسْم (العلوم الخفية)[1].

٥- كلما تدبر العلماء في معنى العبادات في الإسلام ودورها في المحافظة على الفطرة، وقفوا على حِكَم جديدة لدورها أيضًا في تحقيق الحياة الطيبة في الدنيا[2].

ولينظر القارئ ما كتبه أمثال الشاطبي والراغب الأصفهاني وابن تيمية وابن القيم، وغيرهم.

---

(١) باختصار من كتاب «عالم غير منظور... خارج القواعد العلمية»، جمع وتنسيق: يمنى زاهار، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٢م، (ص٣٣، ص٢٠٩).

(٢) إن الغموض والطابع السري الذي يحتفظ به رجال الدين في النصرانية- اضطر البعض إلى اتخاذ وسائل مساعدة في العبادة، كالموسيقا. ولقد تتابعت التطورات الخاصة بالموسيقا والأغاني الدينية في العالم المسيحي، ويذكر في هذا الصدد (كالفن وواتس) صاحب كتاب «ترانيم وأغانٍ روحية»، وحسبك أن تعلم أن الموسيقا الأوروبية ظلت هي موسيقا الكنيسة لفترة طويلة. وإذا كانت الضجة الموسيقية أثارت كثيرًا من النقاد، فإنهم -بنظرة مقارنة- يؤثرون عليها «تلك البساطة الوديعة الرقيقة الصادقة الصامتة في وقوف كثير من المسلمين في الصلاة، أو في استماعهم إلى الأذان يسترسل من حنجرة إنسان»، (ص٢٢٩) من كتاب «في الدين المقارن»، د. محمد كمال جعفر، ط دار الكتب الجامعية، ١٩٧٠م.

٦- يرجع سبب التردي إلى مهاوي الشرك والوثنية والبعد عن الدين الحق- إلى أسباب كثيرة، ربما أهمها:

(أ) الدجاجلة من الكهنة ورجال الأديان والسحرة وغيرهم ممن وضعوا أنفسهم في أمكنة الأنبياء والرسل.

وبنظرة فاحصة مقارنةٍ، يتبين أن هؤلاء يختلفون تمامًا عن أولئك! فيجب الحذر منهم، والامتناع عن الجري وراءهم واتباعهم أو تصديقهم، بل يجب اتباع النبي المعصوم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه الهادي إلى الطريق المستقيم.

(ب) الخلط والانحراف في تصورات العقيدة، كالقول بالحلول، ووحدة الوجود، والتناسخ، كما يتضح في العقائد الخارجة عن أهل السنة والجماعة.

٧- تتسم الحضارة المعاصرة بمظاهر الشرك والجاهلية بدرجة أكبر مما عرفه العرف في العصر الجاهلي عندما عبدوا الأصنام والأوثان، دعنا من أتباع أديان براهما وبوذا وزرادشت؛ فإن وثنيتها أبين وأظهر.

إن هذه الحضارة التي تتسلط وتفرض نفسها على الشعوب المقهورة في حاجة -لكي تحقق الحياة الطيبة، وتعالج مشكلاتها الاجتماعية والنفسية والأخلاقية- إلى سلوك الطريق الوحيد، طريق عقيدة التوحيد، وشرع الله العادل. وبغير هذا العلاج الناجح سيظل الإنسان يدور في حلْقة مفرغة. قال المستر اليورلاج: «أصبحت -ببساطة- الحياةُ حُلمًا من الأحلام، ولا يهم أحدًا غرض كريم وفكرة سامية، وأصبح كل من الناس يدور حول مصنعه أو مكتبه ليل نهار، كثَور الطاحون، يخدمه خدمة العبيد، وأدى اختراع المراكب السريعة إلى أن أصبح إنسان القرن العشرين دوامة، لا هدوء لها ولا قرار»[1].

---

(١) «الإسلام في عالم متغير» للإمام أبي الحسن الندوي، (ص٧٤- ٧٥)، دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
=

العوائق الحائلة دون فهم عقائد الإسلام وحضارته:

إن المتتبع للأحوال الثقافية التي مر بها العالم الإسلامي، وتعرضه للغزو الفكري الضاري بأساليب مختلفة، يرى من نتائجه:

١- الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني، فتخرّج في ظل الثاني أكثر من جيل تربوا على التثقيف الغربي، ونظرته للدين والعقائد والحياة وفق فلسفته الخاصة.

٢- ندرة مصادر التلقي للثقافة الدينية بالمدارس والجامعات، وخلو المناهج من دراسة العقائد الإسلامية، وعدم إفرادها بالعناية الخاصة، إذ ربما تدرس عرَضًا أثناء الحديث عن التاريخ الإسلامي أو الفرق أو المسائل الفقهية أو الدراسات الفلسفية والكلامية.

٣- فشو العقائد المتأثرة باتجاهات مخالفة لأهل الحديث والسنة، كالتأويل عند متأخري الأشاعرة -بينما اعتنق الإمام الأشعري عقيدة الإمام أحمد بن حنبل!- أو انتشار الطرق الصوفية مع بدعها المختلفة -بما في ذلك البدع في العقائد- وتحولت عند البعض إلى خرافات تنفر من الإسلام.

٤-المؤثرات السياسية والإعلامية الخارجية، بما تحمله من عداء للإسلام، حيث

= أما موقف المسلم إزاء هذه الحضارة فهو يشكل موضوعًا قائمًا بذاته، وعالجه الكثير من العلماء، وعُرض للمناقشة في لقاءات ومؤتمرات عدة، ولكننا ها هنا نسجل ضرورة التمييز بين العقائد والقيم وبين المظهر التكنولوجي، ففي الجانب العقائدي والأخلاقي يحس المسلم -الواعي بدينه- بالسمو والأفضلية، وأن عنده ما يقدمه للبشرية، أما الجانب التقني فإنه يحس بالتبعية. ولكن في الإمكان العلاج، إذا تضافرت جهود العلماء والسلطات المسؤولة. ينظر على سبيل المثال: كتاب «دراسة في البناء الحضاري- محنة المسلم مع حضارة عصره»، للدكتور محمود محمد سفر، كتاب الأمة، رجب ١٤٠٩هـ.

تؤدي دورها في تشويه عقائد أهل السنة والجماعة، والإساءة إليها بخُطط معدة سلفًا، بواسطة المستشرقين ومراكز البحوث والمؤتمرات والندوات وأجهزة المخابرات[(١)].

٥- ضعف الوازع الديني عند البعض، مما يدفعهم إلى اتخاذ الموقف السلبي من العقائد، دون التحري والبحث لتقبل الصحيح ونبذ الخطأ؛ اكتفاءً بتقليد الآباء والعقائد السائدة في المجتمع، بالرغم من مخالفتها للكتاب والسنة.

٦- تراخي أو ضعف الصلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، ولا نقول: هجرهما، وإلا فإن دوام القراءة والدرس والتدبر والسؤال عما يجهل- تجعل المسلم عارفًا بعقائد الإسلام وشرائعه وقيمه الخلقية وسيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإحاطة بتاريخ أمته وتاريخ الأمم السابقة مع رسلهم... إلى غير ذلك من القضايا.

---

(١) يضيف الأستاذ فهمي هويدي المشكلة التي يمثلها الإسلام الإعلامي، بقوله: «هو إسلام جديد غير الذي نعرف، ما نزل به كتاب، ولا بلغه نبي، وما خطر على قلب أحد من عامة المسلمين وخاصتهم، إسلام اصطنعته وسائل الإعلام -أو (الميديا) بالمصطلح الغربي-... قائم على الخصومة، ونافر من الدنيا والعصر والناس، هو ضد استقرار المجتمع، حيث خطابه متسم بالعنف والإرهاب، وهو ضد العقل، وضد الحريات، وضد الديمقراطية، وضد المرأة، وضد الفنون، وضد الغرب... إلخ».
ينظر مقالته بعنوان «الإسلام الإعلامي»، الأهرام في ٦ جُمادى الآخرة ١٤١٢هـ- ١/ ١٢/ ١٩٩٢م، (ص٩).
ثم جاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فتحول الأمر برمته إلى حرب إعلامية ضد الإسلام والمسلمين، يقف وراءها اليهود، وتغذيها الروح الصليبية المتوارثة منذ قرون.
يقول الدكتور أحمد شلبي: «فالروح الصليبية لم تختف عقب الهزيمة سنة ١٢٩٢، بل استمرت حتى دخلوا فلسطين سنة ١٩١٨م، ثم سلموها لحلفائهم الصهاينة». (ص٤٦)، كتاب «صيحة تحذير من الزحف الأسود في البوسنة والهرسك»، ط قايتباي، سنة ١٩٩٣م.
وينظر كتابنا «الإسلاموفوبيا أم الإرهاب الغربي والعنصرية الغربية؟!»، ط دار الخلفاء الراشدين- مصطفى كامل- الإسكندرية، ٢٠٢١م.

فصل
موقف أهل السنة والجماعة من الكلام والفلسفة والمنطق اليوناني

مخالفة المتكلمين والفلاسفة لطريقة المسلمين الأولين:

يقول المؤرخ المقريزي: «ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي، ووقف على الآثار السلفية- علم أنه لم يرد قط -من طريق صحيح، ولا سقيم- عن أحد من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ -على اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم- أنه سأل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن معنى شيء مما وصف به الرب -سبحانه- نفسه الكريمة في القرآن وعلى لسان نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل كلهم فهموا معنى ذلك، فسكتوا عن الكلام في الصفات، نعم، ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية -من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجلال، والإكرام، والجود، والإنعام، والعزة، والعظمة- وساقوا الكلام سوقًا واحدًا، وهكذا أثبتوا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى شيء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، سوى كتاب الله تعالى، ولا عرف أحد منهم الطرق الكلامية، ولا مسائل الفلسفة»[1].

---

(١) نقلًا عن د. عبد الكريم عثمان، «معالم الثقافة الإسلامية»، (ص٩٣)، ط٣، مؤسسة الأنوار- الرياض، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

وقال: «وكان الكثير من العلماء والأئمة -الشافعي، وأبو يوسف، وابن حنبل، والغزالي، وابن تيمية- يحرصون على الامتناع عن الخوض فيما خاض فيه الكلاميون، ويدعون للعودة =

وظلت القرون المفضلة الأولى على هذا النحو فهمًا للعقائد الإسلامية، وتطبيقًا للقيم والأخلاق الفاضلة، ونشرًا للدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإقامة حضارة زاهرة سجلها التاريخ بأحرف من نور.

وأصبحت هذه الفترة الزمنية من تاريخنا العريق -حيث نشأ المجتمع الإسلامي المثالي الأول مقترنًا بطلائع الجهاد لجعل كلمة الله هي العليا- هي المقياس الذي نعرف به كيف مضينا في حركة التقدم والنهضة، عند الاستمساك بنهج السابقين، وبالعكس كيف انتكست حضارتنا وأصابها ما أصابها من تدهور على مدى القرون حتى عصرنا الحاضر؟

ونبدأ بسرد موجز عن التغيرات الحادثة بسبب التفرق والاختلاف في مجال العقيدة، بفعل المتكلمين، وأثر الفلسفة اليونانية حين تُرجمت في عصر المأمون، ثم ظاهرة التقليد في مجال الفقه، والبدع والخرافات بواسطة الصوفية، وفي مجموعها تشكل الانتكاسات في حضارة الإسلام، ولكن علاجها يسير -بمشيئة الله تعالى- لو صدقت النوايا وعلت الهمم.

تعليل ظهور البدع:

قال الدكتور طه حسين (١٣٠٧- ١٣٩٣هـ = ١٨٨٩- ١٩٧٣م) في كتابه الفذ «مرآة الإسلام»[1] عندما عرض بصورة موازنة بين الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته، وما

= إلى المنبع الصافي للثقافة الإسلامية، والاكتفاء بما في القرآن وحديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عقائد، والتأسي بموقف الصحابة من هذه الأمور». نفسه.

(١) وهو وصف الدكتور محمد عمارة بكتابه الموسوعي الرائع بعنوان «طه حسين: من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام»، وهو غني بالمعلومات المذهلة عن رحلة التحول المبارك للدكتور طه حسين، وبخاصة عقب المرحلة الحجازية، وخصص فصلًا بعنوان (مرحلة الإياب، والانتصار للعروبة والإسلام) (١٩٥٢- ١٩٦٠م)، حيث عبر الدكتور طه بقوله: «تلبية لدعوة آمرة من خارج نفسه! شعر فيها بعودة النفس الغريبة حين تؤوب إلى وطنها بعد غربة طويلة جدًا، مدركة لما بين الله وبينها من حساب عسير... وراجية من الله أن يجعل من عسره يسرًا»، (ص١٤٩)، =

حدث بعدهم، قال: «ونستطيع أن نتصور هذا في وضوح حين توازن بين أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا يسمعون القرآن وحديث النبي ﷺ، فتصدق عقولهم، وتؤمن قلوبهم، ولا يخطر لهم أن يجادلوا فيما سمعوا؛ لأن القرآن واضح كل الوضوح، ولأن الحديث الصحيح الذي يثبت عن النبي ﷺ واضح كل الوضوح أيضًا، ولأن مِن سفه النفس وسخف الرأي أن يسمع أحد أن يقول الله ويقول الرسول ﷺ، فيختصم الناس فيما قال الله ورسوله ﷺ.

تستطيع أن توازن بين أصحاب النبي ﷺ الذين سمعوا القرآن ينبئهم بأن الله سميع بصير، وبأنه عليم حكيم، وبأنه واحد، وبأنه قدير، فلم يخطر لواحد منهم أن يسأل عن هذه الصفات التي وصف بها الله نفسه: أهي زائدة عن ذاته، أم هي عين ذاته؟ كما اختلف المسلمون حين جعل المعتزلةُ ينكرون أن تكون لله صفات تقوم بذاته، وإنما صفاته هي ذاته، وسموا أنفسهم من أجل ذلك: (أصحاب التوحيد)!...»[(١)].

«وتستطيع كذلك أن توازن بين أصحاب النبي ﷺ حين سمعوا الله يَعد الكافرين بالعذاب الخالد المقيم، ويَعد المؤمنين بالنعيم الخالد المقيم، ويخوّف المذنبين من المسلمين عقابَه الشديد، ولا يؤيسهم مع ذلك من عفوه ومغفرته، ويعدهم عفوه ومغفرته إن تابوا وأصلحوا.

= ودعا في صمت وخشوع عند الطواف بهذا الدعاء: «قلت له سبحانه: اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأخرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت»، (ص١٦٤).

(١) نفسه (ص٢٧٥). ثم عرض لقضية (مقترف الكبيرة) التي أثارها المتكلمون، وأسرفوا على أنفسهم وعلى الناس بالجدل.

سمع أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا كله، فلم ينكروا، ولم يسرفوا في السؤال، ولم يتورطوا في الجدال.

ثم لم يلبث المسلمون أن عرفوا ألوانًا من الثقافات الأجنبية، والثقافة اليونانية خاصة، والفلسفة اليونانية على وجه أخص، فتأثروا بذلك كله... فآمنوا بالعقل، وحكموه في كل شيء، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة... وقد غرهم إيمانهم بالعقل، فدفعهم إلى شطط بعيد، ولم يخطر لهم أن العقل الإنساني ملكة من ملكات الإنسان، وأن هذه الملكة كغيرها من ملكات الإنسان، محدودة القوة، تستطيع أن تعرف أشياء، وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها؛ وهذا هو الذي فتح عليهم أبواب الاختلاف الذي لا ينقضي»[(١)].

وزاد الطين بِلة أن فرق المتكلمين أخذت تتقاذف بالكفر أحيانًا، وبالفسق غالبًا، وتستبيح امتحان الناس بالسجن والضرب، كما فعل (المأمون) حين أصدر الأمر إلى عامله ببغداد، أن يمتحن جماعة من العلماء؛ للقول إن كلام الله مخلوق، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل، الذي لقي في هذه المحنة بلاءً عظيمًا، فصبر صبر الأبطال، واحتمل السجن الطويل، والحرمان الشديد، والضرب المبرح الذي أضعفه إلى أن تُوفي... ثم جاء (المتوكل) فألغى هذه المحنة.

وأخذ الدكتور طه حسين على المتكلمين قيامهم بتكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل... ومضى بعضهم في الغلو في التأويل إلى أبعد ما يتصور العقل، وإلى غير ما يفهم صراحةً من نصوص القرآن، «وصدق الله تعالى حين أنبأ بأن الراسخين في العلم يقولون: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨]»[(٢)].

---

(١) نفسه (ص٢٧٨).

(٢) نفسه (ص٢٨٤).

وما حدث للمتكلمين حدث أيضًا للفقهاء، إذ فرغوا لدرس كل مذهب من المذاهب الأربعة يجادلون عنها... ثم انتهى أمرهم إلى التعصب لأئمتهم، والتنكر لغيرهم من المجتهدين... وانتهى الأمر إلى مختصرات تحفظ عن ظهر قلب، وشروح تفسر هذه المختصرات، وحواش، وتقارير، تردها إلى الغموض والتعقيد، بعد اليسر والإسماح[١].

ولكن أتيح للمسلمين -لحسن حظهم- أفراد من العلماء في عصور مختلفة، لم يجحدوا التقليد جملة، وإنما حاولوا أن يعملوا عقولهم، ويثبتوا شخصيتهم، وينشروا النور من حولهم... ولكن يجدون نفورًا منهم، وربما أصابهم الأذى، «وانظر إن شئت إلى سيرة ابن تيمية، وما أصابه من إنكار العلماء الجامدين عليه، وبطش الحكام المستبدين به»[٢].

وكذلك التصوف، فقد ظهر الزهد أولًا عند فريق من صالحي المسلمين، أبوا إلا أن يرفضوا لين الحياة، ويشددوا على أنفسهم في العبادة، والتقشف، والإعراض عن اللذات -وليس بهذا كبير بأس- حتى نشأ التصوف الذي عرف في أواخر القرن الأول، وازداد تعقيدًا حين اشتد اتصال المسلمين بالثقافات الأجنبية... ثم اختلط التصوف بمذاهب الباطنية، فازداد تعقيدًا إلى تعقيد... ثم أسرف الصوفية على أنفسهم، حيث صار أمر التصوف -بعد أن فشا الجهل والجمود- إلى ألوان من الشعوذة والدجل، حتى أصاب عامة الناس منه شر كثير[٣].

وبسبب هذه الأحوال، رحب الدكتور طه حسين بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أنكر على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة، كانوا

---

(١) نفسه (ص٣٠١).
(٢) نفسه (ص٣٠٣).
(٣) نفسه (ص٢٨٦).

يعظمون القبور، ويتخذون من الموتى شفعاء عند الله، ويعظمون الأشجار والأحجار، ويرون أن لها من القوة ما ينفع وما يضر، وكانوا قد عادوا في سيرتهم إلى حياة العرب الجاهليين، فعاشوا في الغزو والحرب، ونسُوا الزكاة والصلاة، وأصبح الدين اسمًا لا مسمى له؛ فأراد محمد بن عبد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قومًا مسلمين حقًّا، على نحو ما فعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهل الحجاز منذ أكثرَ من أحد عشر قرنًا... وقد انقاد أهل نجد لهذا المذهب، وأخلصوا له الطاعة، وضحوا بحياتهم في سبيله[١].

ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب، وحاربوه في داره -بقوة وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها- لَكان من المرجوّ جدًّا أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر للهجرة، كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول... كذلك أيقظ النفس العربية، ولفت المسلمين جميعًا -وأهل العراق والشام ومصر بنوع خاص- إلى جزيرة العرب. ولقد استدعى الصراع الفكري بين الوهابيين وخصومهم الرجوع إلى كتب التراث، ونشر الرسائل والكتب التي يؤيد بها كل فريق مذهبه، فنشرت كتب ابن تيمية وابن القيم، واستفاد العالم العربي كله من هذه الحركة العقلية الجديدة[٢].

نقض المنطق اليوناني:

ويذكر أستاذنا الدكتور علي سامي النشار رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أن ابن الوزير تأثر بابن تيمية -إلى حد ما- في نقضه للمنطق اليوناني، بكتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان»،

---

(١) د. عمارة، مصدر سابق، (ص١٠٨- ١٠٩). «طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام».

(٢) نفسه (ص١١٠).

والفكرة التي يريد أن يوضحها في كتابه هي أن للقرآن الكريم أساليب في الاستدلال تخالف أساليب اليونان... ويرى أن القرآن قد جمع بين دفتيه أصح العلوم وأوضحها في العقول، كما ضم أفضل الأعمال وأيسرها على الناس، واشتمل على البراهين العقلية، ما يسمو على فني المنطق والكلام؛ لأن القرآن كتاب شامل عام للخواص والعوام، وقد سلم مما اشتمل عليه المنطق والكلام من تصنع وتكلف في البدهيات والمسلمات، وليس فيه أيضًا أساليب الفلاسفة والمتكلمين الصناعية...[1]

كذلك يذكر ابن الوزير اليماني أنه نبغ في عصره من عادى علوم القرآن وفارق فريق الفرقان، وصنف في التحذير من الاعتماد على ما فيه من التباين في معرفة الديان وأصول قواعد الأديان، وحث على الرجوع في ذلك إلى معرفة قوانين المبتدعة واليونان، منتقصًا لمن اكتفى بما في معجز التنزيل من البرهان... ويذكر إجماع المسلمين من جميع الطوائف على أن القرآن يفيد معرفة أدلة التوحيد من غير ظن ولا تقليد، مقررًا أن التدقيق الفلسفي في التوحيد ينتج الفساد؛ لأن الإسلام دين الفطرة، من غير احتياج إلى فلسفة... ثم يذكر أن الجاحظ قدم لنا كتابه «العبر والاعتبار» من عجائب المخلوقات الضرورية ما يجعل الإنسان يتفكر فيها، ويتعمق في حقيقتها، كما أن النظر في علم التشريح وعجيب خلق الإنسان، والتأمل لما يدرك من ذلك بالعِيان- كل هذه أدلة على التوحيد[2].

---

(١) د. علي سامي النشار، «مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي»، (ص٣٠٧)، ط دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م.
وصدر كتاب ابن الوزير «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» طبع العلمية الأزهرية المصرية الملاوية، ١٣٤٩هـ.

(٢) نفسه (ص٣٠٨).

نقد الفلاسفة:

ويقرر د. أبو ريان أن فلاسفة الإسلام هم ليسوا في الواقع إلا شراحًا للتراث اليوناني، وامتدادًا للشراح الإسكندريين المتأخرين [(١)].

يقول الدكتور محمد علي أبو ريان: «ومن يقرأ كتاب «الجمع بين رأيي الحكيمين: أفلاطون، وأرسطو» للفارابي، يحس بعمق المأساة وضخامتها -أي مأساة نقل الفلسفة اليونانية في عهد المأمون- فقد وقع هذا الفيلسوف فريسة لأمر التلفيق الفلسفي اليوناني الذي تم في مدرسة الإسكندرية... إن ما تلقاه المسلمون من فلسفة إسلامية زيفاء، لا يزالون يولونها عنايتهم إلى عصرنا هذا! وإن من الممكن أن يستمر المسلمون في نسقهم العقلي الابتكاري هذا، حتى يتمكنوا من تكوين مذهب خاص بهم... ولا سيما أن الجو العقلي كان مهيأً تمامًا، بما ورد في القرآن الكريم من صور تركيبية، وأخرى تفسيرية للوجود الإنساني ونوازعه، وللوجود الكوني وبنيته، وحقيقة الخلق والتكوين... إلخ، هذا بالإضافة إلى حث القرآن الكريم للعقل على التفكير في ملكوت السماوات والأرض[(٢)].

ويشبه الدكتور أبو ريان ما حدث تاريخيًا للمسلمين بسبب ترجمة الفلسفة اليونانية، يشبهه بالغزو الثقافي الغربي في العصر الحديث، الذي كان شديد الوطأة، ليس على مظاهر الحياة الإسلامية فحسب، بل وعلى عقول المسلمين ومناهجهم التربوية، وغير ذلك من التيارات التي أغلقت المنافذ على تطور الشعوب الإسلامية، ورقيها، وتقدمها،

---

(١) د. محمد علي أبو ريان، «أسلمة المعرفة- العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية»، (ص١٤)، ط ١٩٩٧م، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية.

(٢) نفسه (ص٨١).

ومن أمثلة هذا الغزو الفكري: انقضاض التيارات المادية والوجودية والبراجماتيكية على الفكر الإسلامي.

ولا منقذ من هذا الغزو إلا التمهيد لإقامة مدرسة إسلامية في مجال العلوم الإنسانية، تشتق أسسها ومبادئها من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، مع التمييز بينها وبين المنهج الغربي العلماني في مجال المعرفة الإنسانية[١].

«تهافت الفلاسفة»:

وهو عنوان كتاب الإمام الغزالي المشهور، إذ عندما ترجمت الفلسفة اليونانية إلى العربية، وانتقلت مذاهبها إلى العالم الإسلامي، جاءت بنظريات ميتافيزيقية تتعارض تمامًا مع العقائد الإسلامية، مثل: القول بقدم العالم، وإنكار علم الله بالجزئيات، ونفي المعاد الجسماني، وهذه المسائل الثلاث هي كفّر بها أبو حامد الغزالي الفلاسفة في كتابه المذكور[٢].

يقول الدكتور عبد الكريم عثمان: «ومع أن ابن رشد حاول أن يرد على هذا الكتاب، فألف في نقضه كتابًا سماه «تهافت التهافت»، إلا أنه لم يكتب لمحاولته هذه قدر من النجاح، وبقي كتاب الغزالي قاصمة الظهر للفلسفة اليونانية في المشرق الإسلامي، إذ لم تقم لها بعده قائمة»[٣].

(١) نفسه (ص٦- ١٣).

(٢) د. عبد الفتاح فؤاد، «الفلاسفة الإسلاميون والصوفية، وموقف أهل السنة منهم»، (ص٢٣)، ط دار الدعوة بالإسكندرية، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

(٣) د. عبد الكريم عثمان، «معالم الثقافة الإسلامية»، (ص٣٨٠)، ط٣، مؤسسة الأنوار بالرياض، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

ولكن ابن سينا تاب في نهاية حياته، كما يذكر الإمام الذهبي في كتابه «تاريخ الإسلام».

هذا إلى أن بعض فلاسفة العالم الإسلامي أدركوا أن محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين- إنما هي محاولة محكوم عليها بالفشل، وأنها محاولة عقيمة غير مجدية، منهم: أبو بكر، زكريا الرازي (ت ٣٢٠هـ) الذي كان ينكر كل الإنكار محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين[١].

وكذلك أبو سليمان السجستاني (ت ٤٠٠هـ)، الذي قال: «... والشريعة حق، ولكنها ليست من الفلسفة في شيء، وصاحب الشريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، وأحدهما مخصوص بالوحي، والآخر مخصوص ببحثه... وهذا يقول: أُمرت، وعُلمت، وقِيل، وما أقول شيئًا من تلقاء نفسي، وهذا يقول: رأيت، ونظرت، واستحسنت، واستقبحت، وهذا يقول: نور العقل أهتدي به، وهذا يقول: معي نور خالق الخلق أمشي بضيائه، وهذا يقول: قال الله تعالى، وقال الملك، وهذا يقول: قال: أفلاطون وسقراط»[٢].

ويستطرد السجستاني في إبراز أوجه الخلاف بين الشريعة والفلسفة، إذ لو كانت هذه جائزة وممكنة لكان الله تعالى ينبه عليها، وكان صاحب الشريعة يقوم شريعته بها، ويكملها باستعمالها... أو يحض المتفلسفين على إيضاحها بها... ولم يفعل ذلك بنفسه، ولا وكله إلى غيره من خلفائه والقائمين بدينه، بل نهى عن الخوض في هذه الأشياء، وكرّه إلى الناس ذكرها، وتوعدهم عليها...

وقال: فأين الدين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل، من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل؟... ولو كان العقل يكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غَناء! على أن منازل الناس متفاوتة في العقل، وأنصباءهم مختلفة فيه[٣].

---

(١) د. عبد الفتاح فؤاد، «الفلاسفة الإسلاميون...»، (ص٢٤)، مصدر سابق. وهو ينقل عن د. إبراهيم مذكور بكتابه «في الفلسفة الإسلامية.. منهج وتطبيقه».

(٢) نفسه (ص٢٥)، ومصدره: أبو حيان التوحيدي، «الإمتاع والمؤانسة».

(٣) نفسه (ص٢٥- ٢٦).

فصل
أتجديد أم تخريب؟!

إن المضي في تصور التجديد وفق نمط الثقافة الغربية والفلسفة المستوردة- له دور (تخريبي)، كما يذكر الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي، مستندًا إلى حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصه -كما أورده-: «إن قومًا ركبوا في سفينة، فانقسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقب رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنع فيه ما شئت! فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا»[1].

ثم علق الرافعي قائلًا: «فكان لهذا الحديث في نفسي كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمون أنفسهم بـ (المجددين)، وينتحلون ضروبًا من الأوصاف كـ (حرية الفكرة)، و(الغيرة)، و(الإصلاح)، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه، أي بقلمه... »[2].

ويعلل ذلك بأنه «لا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة، أو يمسه من قرب أو بعد، ما دامت ملججة في بحرها، سائرة إلى غايتها؛ إذ كلمة (الخرق) لا تحمل في السفينة

(١) لم أعثر على هذا الحديث بنصه، ولكن هناك حديث آخر يشبه معناه: روى الإمام ابن كثير عن الإمام أحمد بسنده قال: سمعت النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب يقول -وأومأ بأصبعيه إلى أذنيه- يقول: «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها -أو المدهن فيها- كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم، فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقًا فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا؛ فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا». انفرد بإخراجه البخاري، دون مسلم. «تفسير ابن كثير»، ج٣، (ص٥٧٩)، ط كتاب الشعب، ١٣٩٠هـ- ١٩٧١م.

(٢) مصطفى صادق الرافعي، «وحي القلم»، ج٣، (ص٨- ٩)، ط الجمل للنشر، ٢٠١٦م.

معناها الأرضي، وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى، وهو (أوسع قبر). ففكر في أعظم فلاسفة الدنيا -مهما يكن من حريته وانطلاقه- فهو ها هنا محدود -على رغم أنفه- بحدود من الخشب والحديد، تفسيرها في لغة البحر: حدود الحياة والمصلحة، وكما أن لفظة (الخرق) يكون من معانيها في البحر: القبر، والغرق، والهلاك، فكلمة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها في الاجتماع: الحماقة، والغفلة، والبلاهة، وكلمة (الحرية) يكون من معانيها: الجناية، والزيغ، والفساد، وعلى هذا القياس اللغوي: فالقلم في أيدي بعض الكُتّاب من معانيه: الفأس، و(الكاتب) من معانيه: المخرب، و(الكتابة) من معانيها: الخيانة، قال لي الحديث: أَفَهِمْتَ؟»[1].

ويمضي في شرح أحاديث أخرى للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليوضح الطريقة التي كان يفهمه بها أصحابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وبهذه الطريقة -أي إعجابًا، وحبًّا، وانقيادًا وطاعةً- «انخلعوا من عصرهم ودنياهم، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم، وانجذبوا إليه أشد انجذاب عرفه التاريخ»... «وما انتقلوا إلى منزلتهم العالية في التاريخ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشريفة»[2].

وفي موضع آخر من كتابه يشرح دور القرآن والسنة في قيام الحضارة الإسلامية، وأثرها في حضارة العصر، فيقول: «إن ها هنا دنيا الصحراء، ستلد الدنيا المتحضرة التي من ذريتها: أوروبا وأمريكا؛ فالقرآن والحديث يعملان في حياة أهل الأرض بنور متمم لما يعمله نور الشمس والقمر. وقد كان المسلمون يغزون الدنيا بأسلحة في ظاهرها أسلحة المقاتلين، ولكنها في معانيها أسلحة الأطباء، وكانوا يحملون الكتاب والسنة؛ ثم مضوا إلى سبيلهم، وبقي الكلام من بعدهم غازيًا محاربًا في العالم كله حرب تغيير وتحويل»[3].

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، «وحي القلم»، ج٣، (ص٨- ٩)، ط الجمل للنشر، ٢٠١٦م.

(٢) نفسه (ص١٩).

(٣) نفسه (ص٦- ٧).

وقريبًا من معنى (التخريب) الذي ذهب إليه الأستاذ الرافعي، نرى الاستعمار حقق أهدافه باستخدام مصطلح (التجديد)، أي إن الغزو الثقافي أو (التغلغل الثقافي) -كما يسميه المستشرق الفرنسي هنري لاوست- هو هدف مجمع عليه من دول الاستعمار الغربية، وغرضه إضعاف قوة المقاومة الإسلامية، وبواعثه عداوة الغرب للإسلام... ويقول بالحرف الواحد: «كان هناك التهديد والقائم على تواطؤ الإمبريالية الأوروبية مع المذاهب المنحلة، ضد الاتجاه السني الصحيح... ولكن الاستعمار الأوروبي لم يخطر على باله أن يحدث إحياءً للعلوم الفقهية لدى العلماء، وأن يعاد تجمع القوى المعنوية الإسلامية، وهو الذي لديه المهارة في أن يجذب إلى صفه أو يقضي على وحدة أية نخبة تنجح بصعوبة في أن تعيد تجمعها، وذلك بصرفها عن رسالتها الاجتماعية مقابل مزايا مادية، أو مقابل تحقيق مصالحها الخاصة... فالإمبرالية الغربية والاستعمار يرافقهما سياسة (تغلغل ثقافي)، أو بث لفكرة وطنية، أو عملية دمج الناس في مفاهيم دينية معينة. أما نمو الأفكار العلمانية ونشاط الدفاع الديني المسيحي فلم يكن لهما من هدف، سوى إضعاف قوة المقاومة الإسلامية، وتمهيد طريق الذل والهوان أمام الإسلام... »[1].

وإن أحد النماذج الدالة على ذلك التغلغل الثقافي يتمثل في إحاطة الفلسفة الوجودية الإلحادية بهالة من الدعاية الواسعة بوسائل الإعلام، مع تصوير (سارتر) بأنه معارض للصهيونية! ولكن سرعان ما انكشفت الخديعة.

وكان الأستاذ أنيس منصور قد اكتشف حقيقة (سارتر) الذي منحته إسرائيل شهادة الدكتوراه الفخرية في سفارة إسرائيل بباريس في مارس ١٩٦٧م، بحضور عدد

(١) هنري لاوست، «شرائع الإسلام في منهج ابن تيمية»، (ص١٠)، الكتاب الثالث: «مراحل انتشار المنهج حتى القرن العشرين»، ترجمة وتعليق وإعداد: محمد عبد العظيم علي، ط دار الدعوة بالإسكندرية، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

من المثقفين الفرنسيين، وعلى رأسهم: وزيرة الثقافة الفرنسية... كما ألف كتاب «المسألة اليهودية»، وزار إسرائيل، وأشاد بها، ووقع على البيانات المؤيدة لها!

وعندما زار مصر هو وعشيقته (سيمون دي بوفوار) قُوبلا بحفاوة بالغة، أشبه بمظاهرة، في العهد الناصري، بجريدة (الأهرام). ومثال ذلك حين كتب أحد الشيوعيين مقالًا بعنوان «سارتر ضمير العصر»؛ مما جعل (سارتر) نفسه يتساءل: «أنا ضمير العصر كله؟!... أنا لست حتى ضمير نفسي»!!

أما التبجح الفج الدال على الفجور المحض، وعدم الحياء- فقد صدر عن المدعوة (سيمون دي بوفوار)، إذ قالت لنساء مصر بوقاحة تامة: «نحن نريد أن نحطم (قوامة الرجل)»، ودعت إلى حياة زوجية محررة من (العقد الشرعي)، كحياتها الداعرة مع (سارتر)!![1]

ولا نجد ردًّا على تلك المرأة الخرقاء أفضلَ من حكم الدكتور (مراد هوفمان) المهتدي للإسلام، الذي يحمل خبرة عميقة بالمجتمع الغربي ومكانة المرأة فيه، مع دراسته العميقة للشريعة الإسلامية من مصادرها، قال: «نزلت الشريعة الإسلامية للعالم كله، بأجناسه المختلفة رجالًا ونساءً، فطبقًا للقرآن الكريم خُلق الرجال والنساء لنفس الغرض، اشتركوا في التكاليف التي تأهلوا لها، يتعرضون لنفس السنن الكونية، وسيحاسبون في الآخرة بنفس المقاييس... هل يمكن القول بأن مثل هذه الشريعة تعادي المرأة؟!»[2].

---

(١) أنور الجندي، «إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام»، (ص٩٧- ٩٨)، باختصار، ط دار الاعتصام، ١٩٨٥م.

(٢) د. مراد هوفمان، «الإسلام كبديل»، تعريب: عادل المعلم، (ص١٢٥)، ط٢، دار الشروق، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

ويستطرد قائلًا: «وكنقطة بداية، يجب أن نعترف بواقع تمييز الرجل عن المرأة في العالم كله... أكدت (سيلفيا آن هيوليت) في كتابها «الحياة الأدنى- خرافة تحرير المرأة في أمريكا» ١٩٨٦: إن النساء في أمريكا ما زلن يكسبن ٦٤٪ مما يكسبه الرجال، وحتى السويد بنسبة ٨١٪»[(١)].

وفي موضع آخر يقرر: المرأة المسلمة تمتعت بملكيتها الخاصة منذ ١٤٠٠ سنة، بينما لم تحصل المرأة الأوروبية على ذلك -إن كانت قد حصلت عليه- إلا في منتصف القرن العشرين... ويعتبر الإسلام الأمومة وتربية الطفل أنبل وأكرم أدوار المرأة، وترفعها قدرتُها على حمل الحياة في بطنها لِمقام سامٍ، فقال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الأم: «**الزمها؛ فإن الجنة تحت قدميها**»... أليس من الأهمية بمكان أن تأمر الشريعة بجلد من يقذف المحصنات الغافلات ثمانين جلدة؟[(٢)].

---

(١) نفسه (ص١٢٧).

(٢) نفسه (ص١٢٩).

عن انحراف الحداثيين وانحدارهم إلى منزلق خطر، ونحن ندعوهم إلى قراءة نبذة عن موقف الشاعر الألماني جوتة من الإسلام[١]، إذ كان أحد أسباب إكباره للقرآن الكريم تكمن في إحساسه بقيمته اللغوية المتميزة، فوصفه بأنه مثير للعجب والدهشة وأن أسلوب القرآن مُحكم سامٍ... وفي مواضع عديدة يبلغ قمة السمو حقًّا.. وإذا علمنا أن جوتة قرأ القرآن الكريم مترجمًا إلى اللاتينية والألمانية، فماذا كان سيقول عنه يا تُرى لو قُدّر له أن يقرأه بالعربية؟!

هذا بينما الحداثيون العرب ولغتهم عربية ويفهمونها حق الفهم يتعاملون مع النص القرآني نازعين عنه صفة القداسة، فوقعوا في خطأ فاحش وانحراف مُهلك!!

كذلك يتبين أن الدكتور نصر حامد أبو زيد أصابته عدوى الحداثيين الغربيين بتعامله مع النص القرآني، وقد نفى عنه صفة القداسة لخطوة من خطوات التحليل الموضوعي، وطبق عليه ما يطبق على تحليل قصيدة أو قصة أو مسرحية، أي نظر إلى النص القرآني في نظره تقييم!

ومما سبق بيانه تفصيلًا، فإن موقفه هذا ليس من الموضوعية في شيء[٢]، بل هو تقليد حرفي للتيار الحداثي الغربي دون اعتبار لما تميز به القرآن الكريم من دلائل الإعجاز التي تبرهن أنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول الدكتور طه حسين: «إن أحد وجوه الإعجاز في القرآن هو نظمه، أي أسلوبه في أداء المعاني التي أراد الله أن تؤدى إلى الناس. لم يؤد إليهم هذه المعاني شعرًا... ولم يؤدها

---

(١) الأصل كتاب من تأليف كاترينا موفرن، ترجمة د/ عدنان عباس ومراجعة د/ عبد القادر مكاوي - سلسلة (عالم المعرفة) بالكويت، رمضان ١٤١٥هـ - فبراير ١٩٩٥م.

(٢) د/ عرفة عبد المقصود عامر (خطاب القرآن الكريم عن اليهود - دراسة نصية) (ص١٣) ط. دار الشهاني للطباعة والنشر بالقاهرة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

وهذا الكتاب جدير بعناية الباحثين المهتمين بالرد على الحداثيين وإثبات عوار منهجهم.

إليهم نثرًا أيضًا، وإنما أداها على مذهب مقصور عليه وفي أسلوب خاص به لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، ليس شعرًا لأنه لا يتقيد بأوزان الشعر وقوانينه... وليست نثرًا لأنه لا يطلق إطلاق النثر ولا يقيد بهذه القيود التي عرفها الكُتاب في الإسلام، وإنما هو آيات متصلة لها مزاجها الخاص في الاتصال والانفصال، وفي الطول والقصر، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف»[(١)].

إلى أن يقول: «وقد ألفت كتب قديمة وحديثة في إعجاز القرآن، ولكنها على كثرتها لم تقل في إعجازه كل ما يمكن أن يُقال؛ لأنه أروع روعة وأبهر جمالًا من أن يستنفد فيه القول»[(٢)].

ويقول أيضًا في ختام عرضه لإعجاز القرآن: «ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز في القرآن وملاءمة كل مذهب من مذاهب القول فيه لما فرغت من هذا الحديث»![(٣)].

ونعود لعرض خلاصة قول الدكتور عرفة عبد المقصود: «في ضوء تكامل التناص القرآني وتماسكه بين سورة البقرة وسورة النمل... تكتمل اللوحة التي توضح سر عداء اليهودية للإسلام، لأنه كشف وسائل إعلامهم وذكر عنهم كل صغيرة وكبيرة، فجاء النص مكملًا آيات البقرة، ومؤكدًا مفارقتين كلتيهما مرَّ على نفسية اليهود المحطمة التائهة:

الأولى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل:٧٦].

والثانية: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل:٧٧]، فهو كلام رب العالمين».

---

(١) د/ طه حسين «مرآة الإسلام» (ص١٤٩، ١٥٠) ط.دار المعارف ١٩٥٩م.

(٢) نفسه (ص١٥٣).

(٣) نفسه (ص١٩٤).

هذا وقد استغرق عرض فنون إعجاز القرآن نحو خمسين صفحة من الكتاب من (ص١٤٤) إلى (ص١٩٤).

ملحق (١)

تحول بعض أئمة الأشاعرة إلى طريقة السلف

لاشك أن الرغبة في الدفاع عن عقيدة أهل السنة بخاصة والإسلام بعامة هي التي دفعت أئمة الأشاعرة إلى استخدام علم الكلام ظنًّا منهم أنه المنهج الصحيح لهذا الغرض، ثم تبين لهم بعد التجربة سلبيّته، فتحولوا عنه، وكان أول المتحولين إلى طريقة السلف هو الإمام أبو الحسن الأشعري نفسه، وقصة تحوله من الاعتزال إلى عقيدة الإمام أحمد بن حنبل تبرهن على ذلك كما أسلفنا.

ومن الثابت عن الذين ترجموا للأشعري - وأبرزهم ابن عساكر في كتاب (تبيين كذب المفتري) الذي أثبت أن كتاب (الإبانة) من أواخر كتبه، وهو دليل على استقراره على طريقة الإمام أحمد ومنهجه وعقيدته متابعة لطريقة السلف.

ويمكن تقسيم حياته العلمية إلى ثلاثة أطوار -الأول عندما كان معتزليًّا- والثاني عندما بدأ يعيد النظر في معتقداته المعتزلية ويخط لنفسه منهجًا جديدًا يلجأ فيه إلى تأويل النصوص بما ظن أنه يتفق مع أحكام العقل، ثم الطور الأخير الذي كتب فيه (الإبانة) وعبر فيه عن تفضيله لعقيدة السلف ومنهجهم والتي كان الحامل لواءها حينذاك الإمام أحمد بن حنبل[(١)]، وكرر أيضًا مضمون عقيدته في كتابه (مقالات الإسلاميين) ناسبًا إياها لأهل السنة والحديث، وكتابه (رسالة إلى أهل الثغر) كما بيّنا في مبحث سابق.

---

(١) ينظر تعليق الأستاذ محب الدين الخطيب على كتاب (المنتقى) للذهبي (ص٤٣)، ط السلفية ١٣٧٤هـ.

وجاء بعده الإمام الباقلاني فكان حريصًا على الانتساب إلى الإمام ابن حنبل أيضًا، حتى كان يكتب في بعض أجوبته: محمد بن الطيب الحنبلي(١).

وأئمة الأشعرية بعده اتخذوا موقفًا مشابهًا أيضًا يثير الانتباه ويدعو لبحث هذه الظاهرة التي - إن دلت على شيء - فإنها تدل على الإخلاص في البحث عن الحقيقة من جهة، كما تدل من جهة أخرى على أنه لا سبيل إلى معرفة أصول الدين إلا من مصادره في الكتاب والسنة.

فها هو إمام الحرمين الجويني في كتابه (الرسالة النظامية) يشير إلى اختلاف مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تأويلها، والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن. وذهب أئمة السلف إلى الكف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب. ثم يصرح بأن الذي يرتضيه رأيًا، ويدين لله به عقدًا، اتباع سلف الأمة، مبرهنًا على ذلك بأن الدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهومستند الشريعة، وقد درج صحب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهدًا في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مشروعًا أو محتومًا لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة. وإذا ثبت عنهم الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع، فحق على كل ذي دين أن يعتقد تنزيه الباري عن صفات المحدثين ولا يخوض في تأويل المشكلات. ويكل معناها إلى الرب، فليجر آية الاستواء، والمجيء، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وما صح من أخبار الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا

(١) ابن تيمية - موافقة (ج٢) (ص٩، ٥١).

- ويعضد ذلك ما ذهب إليه في كتابه (غياث الأمم) فبالرغم من أن الكتاب مخصص لعرض الفقه السياسي الإسلامي وآرائه في منصب الخلافة أو الإمامة، فقد حرص في باب (تفصيل ما إلى الأئمة والولاة) على أن ينص على أحد مهام الخليفة على صرف المسلمين عن الخوض في المشكلات الكلامية وتوجيههم إلى طريقة السلف، فقال في هذا الصدد: «والذي أذكره الآن لائقًا بمقصود هذا الكتاب، إن الذي يحرص الإمام فيه جمع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين، قبل أن نبغت الأهواء وزاغت الآراء، وكانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ينهون عن التعرض للغوامض والتعمق في المشكلات.. إلى أن يقول: وما كانوا ينفكون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عما تعرّض له المتأخرون من عي وحصر، وتبلد في القرائح هيهات! فقد كانوا أذكى الخلائق أذهانًا وأرجحهم بيانًا..»[1].

ورأي الغزالي أيضًا في علم الكلام مدون في كتبه معروف مشهور لاسيما (الإحياء) فقد قال فيه: «وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات! فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكبر من الكشف والتعريف»، وإلى نفس المعنى يذهب في كتابه (المنقذ من الضلال) فذم علم الكلام أيضًا وقال بأن أدلته لا تفيد اليقين. وفي كتابه (التفرقة بين الإيمان والزندقة)، صرّح بتحريم الخوض فيه فقال: «لو تركنا المداهنة لصرحنا بأن الخوض في هذا العلم حرام».

ومات الغزالي على خير أحواله، مات على الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم، طالبًا علم الحديث، فتحول من الكلام إلى طلب السنّة من مصادرها الصحيحة.

---

(١) الجويني - غياث الأمم في التياث الظلم (ص١٤٠-١٤١) تحقيق د. مصطفى حلمي، و د. فؤاد عبد المنعم ط. دار الدعوة بالإسكندرية سنة ١٤٠٠هـ.

أما الرازي (٦٠٦هـ) - وهو المعبر عن المذهب الأشعري في مرحلته الأخيرة حيث خلط الكلام بالفلسفة - فقد نبّه في أواخر عمره إلى ضرورة اتباع منهج السلف، وأعلن أنه أسلم المناهج بعد أن دار دورته في طرق علم الكلام والفلسفة، فقال في النهاية: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق الطرق القرآن: أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

ثم قال: «ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»، وكان يتمثل كثيرًا الأبيات التالية:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبالُ

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا له فيه قيل وقالوا[1]

وقال في وصيته: «أحمد الله بالمحامد التي ذكره بها أفضل ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في أكمل أوقات مشاهدتهم، بل أقول ذلك من تاريخ الحدوث والإمكان، فأحمد بالمحامد التي يستوجبها لكمال الإلهية، عرفتها أو لم أعرفها؛ لأنه لا مناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب».. إلى قوله: «ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها

---

(١) ابن الوزير اليماني - الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ (ج٢) (ص١٦٨)، المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ.

في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية»، وذكر في وصيته أيضًا أنه «يدين لله تعالى بدين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسأل الله تعالى أن يقبل منه هذه الجملة ولا يطالبه بالتفصيل»[١].

ونكتفي بهذا القدر لبيان النتائج التي توصل إليها أكبر أئمة المتكلمين في المدرسة الأشعرية، إذ تأكدوا بعد رحلة طويلة مع الكلام والخوض في قضاياه إلى نتائج حاسمة حيث وجدوا -كما ذكر الرازي- أن طريقة القرآن كافية شافية، وأن طريقة أهل الحديث موصلة إلى اليقين، داعية إلى الاطمئنان وثبات الإيمان.

---

(١) ابن الوزير اليماني - الروض الباسم (ج٢) (ص١٦٨)، وقد أورد نصوصًا كثيرة أخرى تثبت رجوع أئمة الكلام إلى طريقة السلف، فنقل عن القرطبي في (شرح مسلم) أيضًا أن الجويني كان يقول لأصحابه: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به. وأوصى الكرابيسي قبل موته بأتباعه بقوله: «عليكم بما عليه أهل الحديث، فإني رأيت الحق معهم»، وأورد قول أبي الوفاء بن عقيل لأصحابه: «لقد بالغت في الأصول طول عمري ثم عدت إلى القهقرى إلى مذهب المكتب - يعني الذين يكتبون الحديث ويشتغلون به-» وأيضًا قول الشهرستاني: «عليكم بدين العجائز، فإنه أسنى الجوائز». المصدر السابق (ص٩٨٦-١٦٩).
وينظر أيضًا نص الوصية التي أوردها الدكتور علي محمد حسن العماري في كتابه: الإمام فخر الدين الرازي - حياته وآثاره (ص٧٥) ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م.

ملحق (٢)

تقويم ابن تيمية لشيوخ الأشاعرة

يرى ابن تيمية أن شيوخ الأشاعرة أقرب إلى الإمام أحمد تحقيقًا وانتسابًا. أما تحقيقًا، فإن الأشاعرة أقرب إلى مذهب السلف وأهل الحديث في مسألتي القرآن والصفات. كذلك فإن انتساب الأشعري وأصحابه إلى أحمد بن حنبل والمحدثين عمومًا ظاهرة واضحة في كتبهم(١).

ويقول: «ولهذا لما كان أبو الحسن الأشعري وأصحابه منتسبين إلى السنّة والجماعة كان منتحلًا للإمام أحمد ذاكرًا أنه مقتد به متبع سبيله. وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة والمؤالفة لكثير من أصحاب الإمام أحمد ما هو معروف»(٢).

أما عن موقفه من الإمام أبي الحسن، فإن القارئ لكتبه يلمس أحيانًا رقة في نقده، وذلك بسبب أقوال الأشعري المؤيدة لمذاهب أهل الحديث والسنة في عدة مواضيع؛ كالصفات والقدر والإمامة، وردوده على المعتزلة والشيعة والجهمية. ولهذا يرى أنه ينبغي أن يعرف لهذا الإمام حقه وقدره عملًا بقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣]، كذلك فإن قيامه بنصرة مذهب أهل السنة في وجه أهل البدع وقهره للمخالفين يضعه في مرتبة المجاهدين(٣).

ومع أن شيخنا لا يعد أتباع المدرسة الأشعرية سلفيين خُلَّصًا؛ لأن المذهب السلفي

---

(١) ابن تيمية – شرح العقيدة الأصفهانية (ص٦٨).
(٢) ابن تيمية – نقض المنطق (ص١٣٧).
(٣) ن. م (١١).

بالمعنى الدقيق يلفظ علم الكلام البدعي سواء على منهج المعتزلة أم بدفاع شيوخ الأشاعرة، إلا أنه يقر بوجود تقارب بين المذهبين كما قلنا، ويراه يكاد يلتحم عند المحدّثين منهم خاصة: كابن عساكر (٥٧١هـ)، والبيهقي (٤٥٨هـ)، والنووي (٦٧٦هـ) حيث غلب عندهم جانب الحديث عن الاتجاه الكلامي.

من جهة أخرى، ينتسب إلى الحنابلة أيضًا من المتأخرين من يذهب إلى شيء من التأويل كابن عقيل (٥١٣هـ) وابن الجوزي (٥٩٧هـ)[١]. كذلك فقد شذت منهم قلة -شأنهم في ذلك أتباع المذاهب والفرق جميعًا- حيث اتفقت مع ابن حنبل في الفروع وخالفته في بعض الأصول قائلين بالجهة والجسمية ولكن (أحمد بريء منهم وأهل السنة والجماعة من الحنابلة لا يعدونهم منهم)[٢].

وفي نقده للمحدّثين، يرى أن ما يعيب بعض علماء الحديث يرجع إلى الحشو الناجم عن الاحتجاج بأحاديث ضعيفة أو موضوعة، أوما لا يصح الاحتجاج به. أما القاعدة السليمة التي ينبغي على المحدثين التقيد بها حتى يسلم منهجهم من الأخطاء والحشو، فهي تتلخص في ضرورة توافر عاملين: أحدهما التثبت من صحة الحديث، والثاني: فهم معناه[٣].

وهكذا استطاع شيخنا باستخدامه لمنهج (المعادلة والموازنة) أن يحدد مدى الاقتراب والابتعاد عن طريقة السلف، محاولًا البرهنة على أن المحدثين الذين تنسحب الشروط الآنفة عليهم - هم الممثلون الحقيقيون للمدرسة السلفية؛ لأنهم «اعتمدوا في

---

(١) صفي الدين الحنفي - القول الجلي في ترجمة شيخ الإسلام (ص٢٥٣).
(٢) ن. م (١٢٧).
(٣) ابن تيمية - نقض المنطق (ص٢٢).

دينهم على استنباط النصوص لا على خيال فلسفي، ولا رأي قياسي، ولا غير ذلك من الآراء المبتدعات»[١].

أما سبب ذيوع المذهب الأشعري في رأي شيخ الإسلام فيرجع إلى العوامل الآتية:

أولًا: كثرة الحق الذي يقولونه وظهور الآثار النبوية عندهم.

ثانيًا: لبسهم ذلك بمقاييس عقلية - ظنوا أنها صحيحة بينما هي في الواقع موروثة عن تيار خارجي من الفلسفة وغيرها - وظنوا أيضًا أنه يتعذَّر التمسك بالآثار النبوية في مواجهة المعتزلة إلا بهذا الوجه.

ثالثًا: ضعف الآثار النبوية في عصورهم الموضحة لسبيل الهدى.

رابعًا: تقصير المنتسبين للسنة. ويحمّلهم ابن تيمية مسئولية ما حدث ناقدًا لبعضهم بقوله: «أنهم تارة يروون ما لا يعلمون صحته، وتارة يكونون كالأُميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور»[٢].

طريقة السلف أعلم وأحكم:

وبعد، فإن الغالب على القضايا المتنازع أصبحت لها الصبغة التاريخية لأن الاهتمامات الثقافية والعلمية والدينية حينذاك هي الدافعة لجعلها الأولى بالبحث والمناقشة، ولكن لهذه القضايا نفسها جانبًا ما زال يستحق الاهتمام والدراسة باعتباره يلقي الضوء على الصلة بين الاتجاهين السمعي والعقلي، ولا يمكن تجاهل النقاش بينهما، فإن الإنسان بمكوناته العقلية والنفسية وثقافته المصطبغة أحيانا بصبغة العصر الذي يعيش فيه، كل ذلك قد

---

(١) ن. م (٨١).

(٢) ابن تيمية - فتاوى (ج١٢) (ص٢٣).

يؤثر عليه تأثيرًا كبيرًا عند تطلعه في البحث عن الحقيقة التي ينشدها. واذا خصّصنا المسلم المعاصر بالحديث، فإننا نراه يقف أمام القرآن الحكيم والسنة النبوية أحد موقفين: الأول التأثر بالفلسفات السائدة والمناهج التي تجعل من العقل المكانة الأولى في نظرية المعرفة، ومن ثم يميل إلى المنهج الاعتزالي، وإنْ توسّط في موقفه اختار المنهج الأشعري.

والثاني: البحث عن المنهج الصحيح للعقائد موقنًا بأنه من الخطأ العلمي والديني الانصراف عن الأصل الثاني للإسلام وهو السنّة، وضرورة تحري الصحيح منها في مصادرها، وما أكثرها وأوثقها. وهنا ينبغي أيضًا الاسترشاد بطريقة علماء الحديث والسنة ومعرفة منهجهم في النظر والاستدلال لإثبات صحة العقائد الإسلامية.

وفي بحث كهذا محدود الهدف وموحد المنهج، رأينا توضيح التباين والتمايز بين الاتجاهين: المعتزلي والأشعري من ناحية، وعلماء الحديث من ناحية أخرى. وقد تبين لنا أن المعتزلة اعتزلوا السنة والجماعة ووضعوا لأنفسهم أصولًا خمسة.

أما الأشاعرة -فإنهم دافعوا عن عقيدة أهل السنة والجماعة وأعلنوا الانتماء إليهم- ولكنهم التزموا في منهجهم بصفة عامة بمنهج التأويل، بحجة التوفيق بين النصوص الشرعية والأحكام العقلية، وغلب عليهم تأويل النصوص الشرعية لتطويعها للأصول التي وضعها أهل الكلام قبلهم.

وإذا كانت دراستنا قد أوصلتنا إلى انتهاء بعض أئمة الأشاعرة سلفيين، فإن ذلك يدل على اكتشافهم أن طريقة السلف هي الأعلم والأحكم؛ لأنهم تقيدوا بمنهج علماء الحديث، وعلينا الاستفادة من تجاربهم التي أمضوا فيها السنوات الطوال بحثًا وتفكيرًا وتأملًا ودراسة، ويصبح من السرف أيضًا في الوقت والجهد، اتباع طريقتهم الكلامية

قبل رجوعهم عنها، لاسيما ولدينا مؤلفات علماء الحديث والسنة بعدهم، أخلصوا في إظهار المنهج السلفي والدفاع عنه، وبيان أنه يستند إلى الأدلة الشرعية العقلية.

ونعود لنذّكر مرة أخرى باعتناق الإمام الأشعري نفسه لعقيدة الإمام أحمد ابن حنبل، فالأَوْلى للمتشيّعين لمذهبه اتباعه؛ لنبذ الخلاف والفرقة، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الائتلاف والتساند، والوقوف في صف واحد، لمواجهة حملات العداء للإسلام والمسلمين.

المحتويات

المقدمة ٥
مدخل الدراسة.. ٩
التعريف بالمؤلف: الإمام محمد بن إبراهيم بن الوزير اليماني (ت ٨٤٠هـ) ٢٢
مضمون الكتاب ٢٣
خطبة الكتاب ٢٥
فصل: في بطلان ما ادّعاه من قصور القرآن عن الوفاء بالدلالة على الربوبية والتوحيد والنبوات، وبيان خلافه في ذلك للمعقول والمنقول وإجماع المسلمين ٢٧
فصل..٤١
في هداية الخصوم ٤٣
الآيات الدالة على وحدة الصانع جَلَّ وَعَلَا..٥٨
إجماع الملل على وضوح الطريق لمعرفة الله تعالى ٦٢
الكلام أن المجاز غير محمود..٦٧
فصل: في الإشارة إلى ما يعرف به المجاز من الحقيقة..٧٥
فصل: نقد المتكلمين: مخالفتهم لمنهج القرآن الكريم..٧٩
مقارنة بين المنهج الكلامي ومنهج القرآن والسنة ٧٩
فصل: الاستدلال على العقائد الإسلامية بالكتاب والسنة..٩٢

فصل: تعليل أخطاء المستغربين والحداثيين ١٠٢
فصل: منهج الدكتور محمد عبد الله دراز في عرضه لطريقة القرآن الكريم في إثبات ربانية مصدره ١٠٩
فصل: عصر الرسالة النبوية هو عصر التنوير الحق ١١٦
فصل: موقف أهل السنة والجماعة من الكلام والفلسفة والمنطق اليوناني ١٣٥
فصل: أتجديد أم تخريب؟! ١٤٥
المحتويات........................ ١٦٢

تم بحمد الله